رمّان

الافتتاحية: ارحموه من هذا الدّبق القاسي

ثقافية فنية فلسطينية - شهرية | تحرير وإخراج فني: سليم البيك | العدد الرابع/أيار ٢٠١٠

http://www.horria.org/romman.htm | romman.saleem@gmail.com

كولاج درويش - تصميم سمر حزبون - خاص بالعدد

الافتتاحية

ارحموه من هذا الدّبق القاسي

ليس الغاية من هذا العدد الخاص بالراحل محمود درويش تقديس الشاعر، ولا التمسّح به، ولا أيقنته والمبالغة في ذلك، وهي الهواية التي شاعت مؤخّرا بين عرب كثيرين وفلسطينيين أكثر وخاصة أولئك من أرادوا التطهّر ثقافيا من دنسهم السياسي، ولعلّ طريقتهم الأنجع في ذلك كانت «بتعمشق» ودبق اسم درويش دبقاً، بعد محاولات خائبة لتوزيره. وقبل ذلك انسحابه، وإدوارد سعيد، من منظمة التحرير احتجاجا على مهزلة أوسلو ومهرّجيها.

إذن أرجو أن لا يقع العدد في فخ التقديس الذي يدين ممارسيه، والذي أتعب ويتعب درويش ويقلق سكينته.

ستحاول زمان في هذا العدد المخصّص لذكرى ميلاده أن تتناول أهمية درويش في الثقافة الفلسطينية خاصة والإنسانية عامة، انطلاقا من حب وتقدير كبيرين لهذا الشاعر، دون الانزلاق في كرنفالات تقديسيّة مدّعية، والتي على كثرتها صارت مستهلَكة يعتريها الدبق.

لعلّها من أجمل الأمور (لا أقول أجملها) التي حصلت لفلسطين هي ميلاد محمود درويش، ولعلّ ١٣ نيسان يكون حقا اليوم الأمثل للثقافة الوطنية، ودرويش أهلٌ لذلك، لكن (أرجوكم) لا ثقافة «السلام» والاستسلام والفساد المالي والأخلاقي- بما فيها الجنسي- والإداري وكل بلاء جلبته السلطة على القضية التي كتب فيها ولها درويش، والتي اقترب منها بقدر ما ابتعد عن تلك السلطة وعن صفة «مثقف السلطة»، وهو كذلك القدر الذي حاول به «مثقّفو السلطة» وسياسيّوها إلصاق أنفسهم باسمه، علّهم يكسبون شرعية ثقافية، ومنها: سياسية، لهم ولسلطتهم.

لكن درويش الذي نحب، لم يوزّع شرعيّات سياسية. هو ليس، أولا، بموقع من يوزّع، والشرعيات السياسية ليست، ثانيا، أمورا تُوزّع، بل تُكتسب. وإن كان ثمّة من يوزّعها، أو يمنحها، فهو الشعب (أو «الناس» إن أردتم) وهو الذي منح درويشَ شرعية ثقافية، التمّ عليها نفر من المتسلّقين، المحلّقين حول السلطة، «المدبقين».

* الافتتاحية لا تلزم برأيها غير كاتبها.

يتحدثون لـ زمان عن أهمية محمود درويش في الثقافة الفلسطينية وما فيها من خصوصية القضية، وفي الثقافة الإنسانية عامة

وعما كانوا سيقولون له..

أحمد دحبور
الشاعر الفلسطيني
مخيم العائدين في حمص

أهمية لنا أننا عشنا في زمانه :

من حق محمود درويش على الذاكرة والذائقة الفلسطينيتين أن توسعا فتحة البيكار لاسمه الكبير ، فيكون السؤال العادل هو عن أهمية محمود درويش في الثقافة العربية بعامة لا الثقافة الفلسطينية وحدها . فالمساحة الجمالية التي غطاها كانت عابرة للحدود منذ أن أطلق صرخته الشهيرة : أنقذونا من هذا الحب القاسي ، وكان لا يزال يومها في حيفا لاجئاً إليها من البروة . ولم يكن تبرمه بالحب القاسي إلا تعبيراً عن السجن العاطفي الذي أودعه النقد فيه . هذا السجن الذي حكم عليه بالشرط الجغرافي فيما كان مشروعه عربياً بطموحات إنسانية من واقع وطني فلسطيني . ولم يكن تعالياً ، لا سمح الله ، على إطاره المحلي بقدر ما هو نزوع إلى العمق الإنساني . إن مراجعة جادة لنتاج هذا الشاعر الاستثنائي ، تدلنا على التطابق الفذ بين الذاتي والموضوعي في شخصيته الشعرية ، فقد تجلى – سواء أكان ذلك في شعره أم في حضوره الإنساني – شاعراً محتكماً إلى الحق والحقيقة ، باحثاً قلقاً في بحثه الدؤوب ، عن أسرار اللغة ومحمولاتها الرمزية والبيانية ، حاضراً في الزمن لا تشاهد فقط ، بل كشريك وطرف في معادلة الوجود . لقد تحول ، بحق ، إلى أحد أسماءِ فلسطين ، لا بالمعنى السياسي الضيّق ، لكن بما هي فلسطين سؤال عدل وحريّة . ولهذا كان معنيّاً بأنه شاعر بدايات دائماً ، بمعنى أنّه لم يكف عن التجريب ، يدعمه في ذلك ذكاءٍ فطري نفاذ ، وغنائية شعرية ندر أن شهد ديوان العرب مثيلاً لها. كان رحمه الله مزوداً بما يسميه ذكاءِ القلب . وهو تركيب لغوي يجمع مشمولات العقل من فكر وقوة بديهة إلى المستوى العاطفي الذي كان له منه نصيب كبير . فمن يصدق أن هذا الشاعر الخطير كان قادراً على البكاءِ .. بل كثيراً ما كان يبكي في اللحظات الحميمة ؟ .

من هذا كله .. ومن سجايا فنية تحتاج إلى كتب لتبيانها نشأت أهميته حتى يحق للمثقفين العادلين ممن عرفوه عن قرب أن يتباهوا بأنهم عاشوا في عصره .

اسم عابر للزمن :

ما أود أن أقوله قلته كثيراً ، في حياته أساساً ، وكان ذلك مكتوباً في مواقع مختلفة ..

ولكنه غضب يوماً – وكثيراً ما كان يحدث ذلك – فقال لشاعر متمسح باسمه : افعل وقل على لساني ما تشاءِ، ففي ظلي متسع للكثيرين .. !! وإذا كانت نوبة غضب قد أخرجته عن طوره ، فإن الحقيقة ليست نوبة ، بل هي حقيقة ليس إلا .. ومن علاماتها الخاصة به أن ظله وحضوره كانا يتسعان لجيل بكامله .. والآن ، وهو في دار الحق ، يتأكد يوماً بعد يوم أنه اسم عابر للزمن .. رحمه الله .

سلمان ناطور
كاتب وأديب فلسطيني
دالية الكرمل

الثقافة الفلسطينية المعاصرة بمجملها هي ثقافة قضية وأهمية محمود درويش تكمن في أنه كان أبرز من وضع صياغة شعرية لهذه القضية ضمن مشروع أدبي فردي محكم التصميم وواضح الرؤية ومتماسك البنية.

من «سجل أنا عربي» وحتى «لاعب النرد» نحن أمام دولة من الشعر استطاع لوحده أن يقيمها في حوالي نصف قرن رغم المعاناة الشديدة والتناقضات المستحيلة بين أن تكون في الوطن والمنفى ، وبين أن تكون سياسيا ومبدعا، وأن تكون مع الناس وبعيدا عنهم، ولعل في هذه المعايشة الصعبة تكمن عبقريته الابداعية.

ما يميز مسيرة التاريخ أن لكل شعب محنته ولكل محنة شاعرها، من هوميروس وحتى ناظم حكمت ولوركا وبابلو نيرودا وهؤلاءِ الشعراءِ الكبار الذين ينضم اليهم محمود درويش هم الذين أخذوا

على عواتقهم (دون تكليف من أحد إلا من حسهم الوطني وضميرهم الانساني) أن يضعوا الصيغة الأرقى والأكثر جمالية والأعمق لقضية ومحنة وسيرة كل شعب من شعوبهم ولتشكل مجتمعة كنز الثقافة الانسانية ورواية الشعوب المضطهدة والمناضلة مقابل رواية القوي الحاكم الظالم المتغطرس.

في دولة محمود درويش الشعرية والنثرية (لا تقل روعة) تجد كل الفلسطينيين، بينهم الجميل والقبيح والمناضل والعميل والمظلوم والظالم ولكنك لا تجد المتمسكنين الذين يستجدون الرحمة ولا تجد المستسلمين الذين يعلنون نهاية القضية بلا شيءٍ.

إن قضية أنجبت شاعرا كهذا يصبح وزرها أثقل بكثير على شعبها وقيادته ومثقفيه. تصبح مسؤوليتهم في الاخلاص لها أكبر بكثير، وحذار من أن يتحول مشروع محمود درويش وحياته وذكراه الى هيكل مقدس فيقرأ قراءةٍ غيبية وتفقد مفرداته معانيها العميقة. حذار من أن تصبح هذه الدولة الرائعة دولة عربية أخرى كتلك التي نعرفها.

هاتفته قبل رحيله بأيام معدودة.

كان في قريته «الجديدة» يودع أهله قبل سفره إلى الولايات المتحدة. كنت أعرف أنه في حالة صحية صعبة وسيجري العملية. خشيت أن تكون تلك محادثتنا الأخيرة. ترددت . ضغطت على أزرار الجوال: ٠٥٩٩٢٦٢٦.. وتوقفت ومسحت الرقم ثم مرة أخرى ٠٥٩٩...هل أسأله عن صحته؟ عن سفره؟ عن العملية؟ هو لم يعلن ذلك على الملأ. كان يكره أن تمتدح شخصه لكنه أحب ابداءِ اعجاب بقصيدة نشرها حديثا. قلت أحكي عن «لاعب النرد» ومنها قد نأتي إلى صحته.

«شَوَيْ.. شَويْ علينا يا رجل..صدمتنا هذه القصيدة العظيمة..ما أن نصحو من صدمة قصيدة حتى تأتينا بأقوى منها..»

ضحك .. (تخايلتها تلك الضحكة الخجولة)

قال: هل تريدني أن اخفف؟

قلت: أعطنا وقتا أطول بين قصيدة وقصيدة..

(مراهنة على الوقت)

انتهى حديثنا بأمل في لقاءٍ قريب:

– في طريقك الى الجديدة عرّج على دالية الكرمل..

– إلى أن يتم ذلك نلتقي في رام الله..

لم نلتق في رام الله.. لا في جنازته ولا فوق قبره..

(يصعب علي أن نلتقي هناك، فليس هذا هو المكان الذي كنا نلتقي فيه).

لو تحادثنا ثانية لعاتبته: وعدت بأن تخفف ولكن قصيدتك الأخيرة بعد «لاعب النرد» كانت أعنف ما كتبت وأقسى ما فعلت..

هذا الموت كان آخر ما كتبه محمود درويش.

(كان شاعرا في حياته وفي موته).

مروان عبد العال
روائي وفنان فلسطيني
مخيم نهر البارد

الثقافة هي بمثابة أجنة المناعة في الجسد الوطني، وان كان قدرتها على تشكيل الوعي الجمعي للناس باعتبارها مادة مقوية. حتى تكون فعلا "القوة الناعمة" في الصراع. وفي الوقت الذي استطاع فيه محمود رويش ان يعبر من اعتاب القضية ليصل الى الانسانية ، الا انه في هذا العبور الصعب قدر له ان يكون صورة عن التجسيد الامثل لمفهوم الثقافة الوطنية كجزءٍ لايتجزأ من القضية ، بل هي مكون للهوية الجماعية، وقد وسع دائرة الفعل الابداعي الثقافي لتتجاوز حدود الانتماءِ السياسي أولا ، وثم يلغي حتى المعيار المكاني ثانيا. بوصف ان الثقافة الفلسطينية تحتل مكانها الاستثنائي المميز العابر لحدود الجغرافيا ، ليشكل فكرة الوطن، باقانيم جديده وعميقه في الذات الثقافية الفلسطينية، حين يكون المكان عبارة عن منفى منفصل عن جغرافيته العاطفية. الاحتلال منفى. فيردد بحق وصفه للمنفى الداخلي: "يبدأ منفى الفلسطيني منذ الصباح الباكر، منذ أن يفتح النافذة حواجز عسكرية. جنود. ومستوطنات". فقد جرب كل اشكال المنفى الداخلي والخارجي، واجمل ما يحضرني في وصف المنفى بشكل عام عندما قال في مقابله اخيرة: " المنفيّ هو اللامُنتَمي بامتياز. لا ينتمي إلى أي مكان خارج ذاكرته الأولى. تصبح الذاكرة بلاداً وهُوية، وتتحوّل محتوياتُ الذاكرة إلى معبودات. وهكذا يضخّم المنفيُّ جماليات بلاده ويُضفي عليها صفات الفردوس المفقود. وحيث ينظر إلى التاريخ بغضب ليتساءِل: هل أنا ابنُ التاريخ، أم ضحيّته فقط؟" كأنما محمود درويش يستل ثقافة الوجود في وجه ثقافة الاقصاءِ، من خلال رموزه وادواته الشعرية واستعاراته و طقوسه يوغل في اعماق الخصوصية الفلسطينية الى حدود فراد اللغة لتحويلها الى منظومة معرفية تلامس مجد الانسانية.

كما قدر لدرويش ان يقول للمفكر ادورد سعيد قبل رحيله، وما كنت سأقوله له في لحظة كان يستعد فيها للمبارزة الكبرى، مدججا بكل وسائل الحياة كي يهزم الموت ، لن اقوى الا على شحن طاقتي باستعارة كلماته في لحظة الفراق كي اتلو انشودته عليه:

ولو كنت أكتب شعرا لقلت:
أنا اثنان في واحد كجناحيْ سنونو
إن تأخر فصل الربيع اكتفيت بنقل الإشارة
يحب بلادا
ويرحل عنها
هل المستحيل
بعيد؟
يحب الرحيل
إلى أي شيءِ
ففي السفر
الحر بين
الثقافات
قد يجد
الباحثون
عن الجوهر
البشري
مقاعد جاهزة
للجميع
هنا هامش
يتقدّم
أو مركز
يتراجع
لا الشرق شرق
تماماً
ولا الغرب غرب
تماماً
فإن الهوية
مفتوحة للتعدد
لا صَدَفا
أو خنادق
كان المجاز ينام
على ضفة النهر
لولا التلوث
لاحتضن الضفة

الثانية
هل كتبت الرواية؟
حاولت
حاولت أن أستعيد بها صورتي
في مرايا النساء البعيدات
لكنّهن توغلن في ليلهن الحصين
وقلنَ: لنا عالم مستقل عن النص
لن يكتب الرجل المرأة اللغز والحلم
لن تكتب المرأة الرجل الرمز والنجم
لا حب يشبه حباً

خالد الحروب
كاتب وأكاديمي فلسطيني
كامبردج

أحد جوانب عبقرية محمود درويش الشعرية والرمزية تمثل في أختراقاته متعددة المستويات للثيمات التي تناولها شعره، ولأجيال الجمهور التي ظلت تتابعه، رغم إقلاعه عن الشعر المباشر والخطابي. درويش كان شاعر فلسطين المؤنسنة بلا منازع، أنسن فلسطين، وأنسن مقاومتها، وأنتصر للحياة فيها. غنى للأشياء البسيطة، لعرق النعنع، ورائحة البن، وكوفية الجد، وإلتواء طريق الحارة، وشبق فتى يجلس تحت زيتونة يتغزل في جدائل المارات على النبع. لم يتمكن شاعر أو مبدع فلسطيني آخر من التعبير عن توق الفلسطينيين لحياة عادية وأثناء إستعار توحش الإحتلال الإسرائيلي كما فعل درويش. في مواجهة الدبابة كان يلجأ لورد السياج، وكما قال مرة لكاتب هذه السطور ماذا سيفعل جبروت الدبابة أمام براءة الوردة ونقاء أريجها؟

ودرويش كما نعلم، وهذا قلب تعملقه الكبير، طاف في الماضي والتاريخ، نبش الأساطير والخرافات، وركلها، وغاص في الحاضر يغربله كله، لينحاز إلى المستقبل بلا تردد. لهذا كان شعره يتحول ويتطور إطرادا، وبلا توقف ... توقا وإشتهاءً للوصول إلى الشعر الصافي. شعره في دواوينه الأخيرة، وربما نقول من الجدارية فصاعدا، صار شعر فلسفة المستقبل. خلط فلسفة الحياة، والوجود، والحب بلغته الشعرية التي ظلت موسيقاها مسكرة لأنه ظل متمسكا بالإيقاع والوزن فيها. صرنا نقرأ فلسفة شعرية، وشعرا متفلسفا وللغرابة الكبرى نتذوقه ونحبه. والغرابة الأكبر، وهنا مساحة الأختراق الفريدة أيضا، أنه لم يجرجر وراءه كل محبيه وعاشقيه منذ دواوينه الأولى في عقد الستينات من القرن الماضي وحسب، بل ورط في حبه وحب شعره الأجيال الشابة والجديدة. لذلك يتسع نطاق العمر الزمني لعشاقه ممن هم في عمر السبعينات وحتى عمر العشرينات. كلهم متورطون في قراءة درويش وأشعاره ورموزه وتجريداته وأحيانا تهويماته المُتعبة. بذلك حقق درويش للشعر العربي بعامة وليس الفلسطيني وحسب خدمة شبه خرافية تمثلت في توسيع قاعدة شعر الحداثة، شعر الرمز المكثف، البعيد عن المباشرة والخطابية. درويش هو أجمل ما أنتجنا كفلسطينيين.

أهميّة محمود درويش لا تنحصر في موضوع واحد أو جانب واحد أو قضية واحدة.
محمود درويش استطاع خلال سنوات عمره أن يُحقق العديد من النجاحات والانجازات .
محمود درويش هو النموذج الحيّ على الفلسطيني المَقموع والمنهوكة حقوقه والمُضيَّع وطنُه.

نبيه القاسم
ناقد أدبي فلسطيني
الرامة

فهو ابن بلدة البروة المهدمة وحتى الممسوحة من خارطة الوطن.
عاش غريبا في وطنه، ولاجئا قريبا من بلدته، ومُطارَدا مُلاحقا مهدور الحريّة والحقوق
محمود درويش يُجسّد انخداع الفلسطيني الباقي في وطنه بعد عام النكبة بما تبثّه الإذاعات العربية.
وما يتخيّله حقيقة من إمكانية النضال من خارج الوطن، وأفضلية معانقة الوطن من خارجه.
فرحل ليُصدَم بأنظمة الحكم العربية المُتناحرة والمتسابقة على موائد أعداء شعوبها.
محمود درويش عرف أنّ اختياره البُعد عن الوطن لم يكن موفّقا فعاني في سنواته الأخيرة ألمَ البُعد وحرقة الشوق وأكثر من سؤال نفسه : لماذا نزلتَ عن الكرمل؟

لكن محمود لم يستسلم للواقع ، وأخذ يشق طريقه في الإبداع واستطاع أن يطوّر تجربته الشعرية ويأتي بالجديد في كل مجموعة جديدة يُصدرها، حتى بات الشاعر الذي لا يقتنع بما يأتي ودائما يسعى للجديد .
محمود أصبح رمزا للوطن والقضية والإنسان. لكنه لم يكتف بالبكاء على الأطلال ولا بالندب أو بالعنتريات الكاذبة
وانّما اعتمد الإبداع وسيلته لحمل وطنه وشعبه إلى كل بيت في هذا العالم.
استطاع محمود أن يُنبّه الناس من كل الشعوب إلى ما يحيق بالفلسطيني من ظلم، وأن يجعل قضية الفلسطيني قضية كل حرّ في العالم.
محمود درويش هو يوليسيز الفلسطيني الذي رحل عن وطنه الضائع ليبحث عنه في الغربة ويتلمّس طرق العودة إليه.
محمود درويش الذي سأل نفسه أكثر من مرة لماذا كل الناس تعود إلى بيتها ووطنها إلاّ الفلسطيني قُدّرَت له الغربة.
محمود درويش الذي تساءل: هل أجد لي قبرا في وطني؟
حظي بهذه الأمنية الصغيرة الكبيرة ودُفن في ثرى الوطن.
محمود درويش هو الرمز هو القضية هو الوطن هو الإبداع، وهو الإنسان الفلسطيني الشاهد على قذارة هذا العالم الذي تجاهل حقّ الفلسطيني وساهم في ضياع وطنه.

ملحق خاص أصدرته <القدس العربي>
في مناسبة أربعين يوما على رحيل محمود درويش

http://www.horria.org/romman.htm

ختام أنشطة (١٣ آذار) الثقافية في حيفا

ندوة (محمود درويش في الذاكرة) وحفل موسيقي

حيفا – من "لجنة ١٣ آذار للثقافة الوطنيّة"

نغصّت قاعات "مركز الكرمل" في حيفا، مساءِ الجمعة ١٩ آذار، بالجمهور النوعي والواسع، الحيفاوي بالأساس، ومن الجليل والمثلث أيضًا، حيث شاركت في اختتام التظاهرة الثقافية التي أضفت لونًا ثقافيًا راقيًا وفي الوقت نفسه شعبيًا، على المدينة، مدينة محمود درويش بلا منازع، تظاهرة "١٣ آذار – اليوم الوطني للثقافة الفلسطينية"، في أماكن عديدة من المدينة، والذي أُقيم على مدى ثمانية أيام، تحت شعار: "سنكون يومًا ما نريد"، وخُتم بالندوة الإختتامية: "محمود درويش في الذّاكرة"، حيث شارك فيها نخبة من الأساتذة والأدباءِ: د. حسين حمزة – الذي قدّم إضاءةٍ على شعرية درويش، وپروفيسور سليمان جبران عن محمود درويش في المرحلة الأخيرة من شعره، والأستاذ فتحي فوراني فتح "شُرفات على الحدائق الخلفيّة"، أمّا الأديب محمد علي طه فتحدث عن محمود درويش – الصديق والشاعر. وتحدّث السيد عبّاس زين الدين من حيفا عن ذكرياته الإجتماعية الحميميّة مع الشاعر في العمل في جريدة "الاتحاد" والحزب الشيوعي.

وكان عريف الأمسية الشّاعر بشير شلش، الذي افتتح الأمسية بكلمة "لجنة ١٣ آذار للثقافة الوطنيّة" التي نسّقت وأعدّت وأشرفت على كل النشاطات على مدى أكثر من أسبوع، قائلا:

"مرة أخرى تجمعنا فعالية من فعاليات اليوم الوطني للثقافة الفلسطينية التي ابتدأت فعالياته في حيفا، في يوم ميلاد الشاعر الفلسطيني محمود درويش، في الثالث عشر من آذار، وتحت إشراف "لجنة ١٣ آذار للثقافة الوطنية"، والتي تتوزع نشاطاتها على غير مدينة ومكان في الداخل الفلسطيني، تزامنًا مع إحياءِ هذا اليوم في شتى مناطق وجود الفلسطينيين في بلادهم".

وقال في كلمته الإفتتاحيّة:

"لعلّ أكثر ما يجدرُ بنا فعله، ونحن نحلُّ ضيوفًا على اسم محمود درويش في ذكرى ميلاده، التي أعلنت يومًا للاحتفاءِ بالثقافة الوطنية الفلسطينية قاطبة، أن نستذكر المحطّات الأبرز التي ساهمت في خلق هذه التجربة الفلسطينية المتفردة، ذات الحضور والرسوخ غير المتكرر وغير المسبوق في الذّاكرة الجمعية لأبناءِ شعبه وأمته، وفي ثقافات العالم الحديثة، بما يساهم في الإضاءَةِ على حياته وتجربته الأدبيّة المديدة، بمختلف مراحلها ومستويات قراءِتها".

وأضاف: "قيّض لمحمود درويش أن يعيش شاعرًا حتى الرمق الأخير. ورغم نجوميّته غير الاعتيادية، لم يركن إلى منجزه وتصفيق الجمهور، بل اشتغل بدأب يثير الإعجاب وبالغ التقدير على تطوير مشروعه الشعري، وفتح نوافذ فلسطين على العالم، حتى صارت فلسطين استعارةً كونية، وسؤالاً عن جوهر العدالة، واختبارًا جماليًّا وأخلاقيًّا لضمير العالم المُعاصر".

وقال: "ببطءٍ، لكن بثبات، تحوّل اسمُه إلى مرادف لبلاده بشجرها وبشرها وحجرِها، في جدل متعدِّد المستويات، بين محطّات حياته الشخصية المفصلية، التي شاءَت الظروف التاريخية أن يجد السواد الأعظم من الفلسطينيين صورتهم في مراياها، وأن يتماهوا مع صوت حكايته الشخصية التي وجدوا فيها صدى لأيامهم وأصواتهم، في لعبة لا تني تتفرّع وتغتني بين العام والخاص، والشخصي والعمومي، والذاتي والوطني في آنٍ معًا".

واختتم كلمته بالقول: "باحتفائنا بمحمود درويش وأدبه، إنما نحتفي بحصّتنا من هواءِ النّهارات وأشعة الشمس، وحقِّنا الطبيعي في الحرّية والحب وتذوّق الجمال وتقديره، وفي الاحتفاءِ البسيط، وليس الساذج، بإنسانيتنا التي يحاول عدوّنا أن يسلبنا إياها، ليواصل احتلال بلادنا وترويع أحلامنا".

ثم قدّم أول المتحدثين، بروفيسور سليمان جبران، أُستاذ الأدب العربي في جامعة تل أبيب، وأحد الباحثين الجادين في الأدب العربي الحديث عبر مساهمة متواصلة في غير ميدان مهم، في دراسة الأدب العربي، بالإضافة ربطت البروفيسور جبران علاقة صداقة مع الشاعر تواصلت، بشكل خاص، واستعيدت، بعُد عودة الشاعر إلى أُمسية حيفا التاريخيّة عام ٢٠٠٧. وقدم البروفيسور جبران مداخلة حول المرحلة الأخيرة في شعر درويش، وهي المرحلة التي شهدت ولادة الأعمال الأجمل والأنضج في مسيرة الشاعر المديدة. فافتتح كلمته بالقول:

"لا أظنّني مغاليًا إذا قلت إنّ محمود درويش هو أكثر الشعراءِ العرب، بعد الحرب العالمية الثانية، شهرة وانتشارًا. عوامل كثيرة ومتنوّعة تضافرت في تشكيل هذه المكانة المتميزة للشاعر وشعره، في حياته وبعد وفاته أيضًا. هناك أوّلا موهبة شعرية فذّة تجلّتْ بوضوح حتى في "أشعار الصبا" التي بدأ درويش كتابتها ونشرها، وهو ما يزال على مقاعد المدرسة الثانوية، في أواخر الخمسينات من القرن الماضي. هذه الموهبة، أو "السليقة"، كما يسمّيها هو، كفلت للقصيدة الدرويشية، في مراحلها كلّها، انسيابها في طواعية ويسر، مهما كانت القصيدة راقية ومركّبة".

ثم أضاف إلى أن "العامل الثاني أن درويش، بشعره وحياته، غدا "شاعر فلسطين"، أو "شاعر القضية"، أو "شاعر المقاومة"؛ يذكّر بفلسطين وتذكّر به دائمًا، سواءِ رغب الشاعر في هذه "الألقاب" أو رفضها. درويش نفسه شكا غير مرة من تناول شعره "فلسطينيًّا"، دونما التفات إلى الجانب الجمالي فيه؛ كأنّما القضيّة الوطنية هي رافعة هذا الشعر ومدعاة رقيّه وانتشاره. بل إن الشاعر، في أحيان كثيرة، كان "يشاكس" جمهوره رافضًا إلقاءِ قصائده السياسية المباشرة، تلبية لإلحاح هذا الجمهور، عادة، في الأمسيات الشعرية الحاشدة التي شارك فيها . إلا أن ذلك كلّه لا ينفي طبعًا قيام

إعلان اليوم الوطني للثقافة – وادي النسناس في حيفا

الإيديولوجيا عاملاً آخر من عوامل تقييم هذا الشعر و انتشاره".

وقال البروفيسور جبران، إلى أن "العامل الأخير، والأهمّ في رأينا، في انتشار هذا الشعر، وفي بلوغه مستوى فنّيًا راقيًا، في الأساس، أنّ درويش واصل خلال نصف قرن وأكثر كتابة الشعر دون انقطاع، وفي خطّ صاعد في مجمله. بل يمكن القول إنه كرّس حياته، فعلاً لا مجازًا، للقراءة المتواصلة المتنوّعة، ولكتابة الشعر، والانطلاق به إلى مناطق جديدة على الدوام. كأنّما ظلّ، على امتداد هذه المسيرة الشعرية الحافلة، يطرح على نفسه السؤال/ الطلب ذاته: ماذا بعد؟ فهو لم يقنع يومًا بالجماهيرية الواسعة التي حقّقها شعره الخطابي المباشر، حتى في المرحلة الأولى من نتاجه، قبل مغادرته إسرائيل سنة ١٩٧٠، ولا بالمديح يُغدق عليه من قرّائه وناقديه في البلاد وفي العالم العربي، بل واصل دائمًا البحث عن الجديد غير قانع بما أنجز".

ثم قدّم عريف الحفل الأديب محمد علي طه قائلاً: أن محمد علي طه عاش مثل محمود درويش مرارة تهدّم أمكنة طفولته في عام النكبة، وزامل الشاعر الكبير على مقاعد الدراسة، وظل وفيًّا لصداقة امتدت عدة عقود متواصلة، وهو قبل ذلك، قاص فلسطيني مميّز ومتميّز، أغنى المكتبة العربيّة بعدد وافر من المؤلّفات، إضافة الى كونه أحد كتاب المقالة الساخرة المبرّزين في أدبنا المحلي الذي أغنى الجمهور بذكريات من مقاعد الدراسة ومن الفترة الأخيرة من حياة الشاعر، خاصة بعد "عودته" الجزئيّة إلى البلاد.

ثم قدّم بشير شلش المتحدث التالي الأستاذ فتحي فوراني "مربي أجيال، وعاشق للغة العربية، وجار محمود درويش أيام سكن الشاعر في شارعي عباس والمتنبي، طوال عقد الستينات، وناشط سياسي له حضور وافر في حيفا. ثم قرأ الأستاذ فتحي فوراني مختارات من نصوص متنوّعة، كتبت استذكارًا للفترة التي عاشها محمود درويش في حيفا، واحتفاءً بصداقة وجيرة لم تنقطع أواصرهما بالرغم من تبدلات الزمن والمصائر طوال العقود الأربعة الأخيرة".

فيُحدث فتحي فوراني الجمهور عن أول زيارة لفدوى طوقان في حيفا:

"فدوى طوقان..في حيفا!

كان لقاءٍ مثيرًا..صاعدًا من دائرة الحلم!

بعد أشهر من الجرح الحزيراني.. يتصل محمود هاتفيًا.. ويأتي صوته سائلاً:

- ماذا عندك هذه الليلة؟
- لا شيءٍ خاصًا..
- أنت مدعو..
- ما الخبر؟
- عندي هذه الليلة..فدوى!
- ومن فدوى؟
- فدوى طوقان!
- فدوى طوقان؟!!

لم أستطع أن أكبت دهشتي.. فقد كانت فدوى طوقان بالنسبة لجيلنا شاعرة فلسطينية عصيّة على اللقاءِ.. إنها في ذهننا أسطورة.. وهي أخت شاعر فلسطين إبراهيم طوقان.. وحفظنا شعرها غيبًا.. ولا سيما "أعطنا حبًّا".. ونسخنا ديوانها ودواوين شعراءِ الحداثة: عبد الوهاب البياتي ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي ونزار قباني، بقلم الحبر السائل.. وكنّا نستمتع بعملية النسخ.. ونتفنن في كتابة الخط وتزيين الدفتر.. ولم نحلم في حياتنا أن نلتقي بالأسطورة.. بفدوى طوقان..

هذه الليلة نلتقي مع الأُسطورة!

ويكون لقاءٍ تاريخي مثير.. مع الشاعرة الفلسطينية التي دغدغت وجدان جيل كامل من عشاق الشعر الحديث..".

ثم يأتي دور السيد عباس زين الدين، الذي زامل الشاعر في صحافة الحزب الشيوعي، حيث قدّمه العريف:

"الشهرة ، كما يكتب درويش نفسه، فضيحة الكائن المحروم من الأسرار، ومحمود درويش كان بشكل ما، كائنًا محرومًا من الأسرار، لكنه قبل ان يصبح نجم القصيدة الفلسطينية الأكثر سطوعًا، وبعد، عاش تفاصيل حياته اليومية

تيريز سليمان - أثناء الحفل

بكثير من البساطة. الرفيق عباس زين الدين كان واحدًا من الذين عرفوا الشاعر عن قرب أيام مرحلة حيفا في حياته، وأثناءِ عمله محررًا لمجلة "الجديد" الثقافية". ثم أجاب عبّاس زين الدين على أسئلة من مثل:

- نحن في حيفا ذاتها، حبذا لو حكيت لنا، اين كانت أمكنتكم الأثيرة، في أي الأمكنة والبيوت كنتم تلتقون، ومن كان أبرز أفراد المجموعة التي عاش محمود درويش بقربها ومعها.

و - كيف استطاع محمود درويش، رغم سنوات الإقامة الجبرية المتواصلة، أن يواصل حضوره الاجتماعي أيضًا في المدينة، كيف تحايل وتحايلتم على حبسه المنزلي؟

وكان آخر المتحدّثين - د. حسين حمزة الذي بدأ علاقته بشعر محمود درويش قارئًا متذوقًا للأدب، وأوصله شغفه بشعر محمود درويش إلى كتابة إحدى رسائل الدكتوراة الأكثر جدّية من التي كتبت عن محمود درويش. والذي عرف كذلك الشّاعر عن قرب عبر عشرات اللقاءات والحوارات التي أجراها معه بهدف الإعداد لرسالة الدكتوراة.

وشارك حسين حمزة الجمهور في مداخلته عن مميّزات شعرية محمود درويش في المرحلة الأخيرة من حياته، وهي المرحلة التي شهدت ولادة أجمل أعمال الشّاعر الإبداعية، وأكثرها تميُّزًا ونضجًا وحضورًا في مسيرته الأدبية.

أمّا الجزءِ الثاني لهذا النشاط المسمّى "يغنون محمود درويش"، فقد أحيته رنا خوري التي غنّت من قصائد محمود درويش: "ريتا" و"أنّ إلى خبز أمي" - من ألحان مارسيل خليفة و "أنا الطريدة" و "عن لاجئ" من ألحان سعيد مراد (من فرقة "صابرين") وكذلك من "الجدارية" من ألحان حبيب شحادة حنّا - الذي رافق رنا خوري على العود سويّة مع درويش درويش.

وبين شطري الأمسية، التي ملأ جمهورها كافة قاعات المركز، افتتح في إحدى القاعات، معرض الحلى الفلسطينية من صنع الفنانة هيام روحانا.

وفي القاعات الرئيسية في "مركز الكرمل" أحاط الجمهور معرض صور محمود درويش، الذي هو عبارة عن ٢٣ لوحة مطبوعة بحجم كبير وبجودة عالية ترصد كافة مراحل حياته، والذي أعدّته ونسّقته سهام داوود، منسّقة كافّة برامج الأسبوع،

عقدت أمسية "محمود درويش في الذّاكرة" بالتعاون بين "لجنة ١٣ آذار للثقافة الوطنيّة" وصحيفة "الاتحاد"، و"مركز مساواة" و"جمعية التوجيه الدراسي للطلبة العرب" و"المشغل - الجمعيّة العربية للثقافة والفنون - حيفا". حيث قامت مؤسسات "مركز الكرمل" بتجهيز كافة الإستعدادات لاستقبال المشاركين، وقاموا بنصب شاشة تنقل النشاط من القاعة إلى قاعة ثانية، حيث سمع صوت محمود درويش بقراءات من أمسية حيفا التّاريخيّة، بالإضافة إلى مغناة "أحمد العربي" بصوت مارسيل خليفة وأميمة الخليل، وموسيقى التونسي أنور ابراهم المستوحاة من نصوص درويش.

يذكر أنه لوحظ حشد كبير من وسائل الإعلام المختلفة: المكتوبة، والإلكترونية، والتلفزيونية، حيث تعد شركة "الأرز" تقريرًا خاصًا عن هذه الفعاليات بطلب من التلفزيون الفلسطيني.

أمّا "معرض أعلام فلسطين" التشكيلي، بريشة الفنان وليد أيّوب - فقد فتحت مكاتب جريدة "الاتحاد" طوال نهار الجمعة ١٩ آذار خصيصًا، لكي يتسنى لأكبر عدد ممكن من الرواد مشاهدته. وكان التلفزيون الفلسطيني أجرى مقابلة مطوّلة مع وليد أيّوب بين ردهات المعرض.

وكانت أقيمت ليلة الخميس أمسية ثانية في "آزاد" ضمن نشاطات "١٣ آذار"، حيث حجزت أماكن الدخول مسبقًا فامتلأ المقهى تمامًا، أحيت الأمسية الفنّانة تيريز سليمان بأشعار ملحنة لدرويش وخلافها، ورافقتها هلا حمدان بعزف على الجيتار . وقدّمت أسماءِ عزايزة قراءات منتقاة لدرويش من "آن لهذه القصيدة أن تنتهي" (قصيدة: موعد مع إميل حبيبي) وكذلك من نصوص "أثر الفراشة".

وأعلنت سهام داوود، منسّقة البرامج، إلى أن المعرضين، معرض أعلام فلسطين، ومعرض محمود درويش، سيتنقلا بين البلدان والمؤسسات المختلفة، كما أن "لجنة ١٣ آذار للثقافة الوطنيّة" ستقوم بإقامة نشاطات إضافيّة في الشهور القادمة بالتنسيق ومشاركة مؤسسات ونوادي ثقافية في البلدات المختلفة، تحت شعار: "أيّام الثقافة الوطنيّة".

«١٣ آذار للثقافة الوطنيّة» - (اليوم الوطني للثقافة الفلسطينية / يوم ميلاد محمود درويش)

للتنسيق والإستعلام:
١٣aazhar@gmail.com

هدى البلبل ع الـ زمان سمعته بالليل يغني
ويصحي جفني الغفيان اللي بنومه متهني

لأغاني العاشقين

نثر محمود

أمجد ناصر

نجمعت أعمال محمود درويش الشعرية، في حياته، أكثر من مرة، بل تولت غير دار نشر عربية إصدار مجلداتها منذ أواسط سبعينات القرن الماضي.

لكن أعماله النثرية لم تجمع في اطار ما يعرف بالأعمال الكاملة أو الناجزة. كان بإمكان درويش أن يصدر هذه المؤلفات في أكثر من مجلد لكنه لم يفعل. ربما لأنه رأى أن صيغة 'الأعمال الكاملة' تليق بالشعر لا بالنثر، وربما لأنه أرادها أن تبقى في كتب منفصلة تحمل وسم لحظتها وظرف كتابتها.

بدأ محمود درويش ناثراً في فترة قريبة من انطلاقته الشعرية في الأرض المحتلة. فما ان أخذ اسمه يلمع في وسط 'عرب الداخل' حتى راحت القوى السياسية المحلية تحاول استقطابه. فاز في هذا المسعى، كما نعرف، الحزب الشيوعي الاسرائيلي الذي شهدت صحافته انطلاقة درويش الناثر. عرفنا شعر درويش في تلك الفترة ولم نعرف نثره. فأعماله التي نشرت في فلسطين المحتلة أعيد نشرها في القاهرة وبيروت. صحيح أن درويش أعاد النظر في بعض تلك الأعمال وأجرى تعديلات على قصائد بعينها ولكنه لم يستثن منها، على حد علمي، سوى عمل واحد نشره في فترة مبكرة من حياته. هناك، والحال، فجوة في كتابات درويش النثرية، هناك فترة محذوفة هي فترة كتابته في صحافة 'الداخل'. تلك كتابات لم يحرص الشاعر الراحل على جمعها أو حتى الاشارة إليها، وما تسرب منها إلينا هي تلك المقالات القليلة التي نشرها في الصحافة المصرية قبيل خروجه، أشهرها، حسب ظني، مقالته الصرخة: انقذونا من هذا الحب القاسي التي طالب فيها، بحرقة، أن يتم الاحتفاءِ بأعمال شعراءِ 'الأرض المحتلة' بناءٍ على جدارتها الابداعية وليس لكونها طالعة، فقط، من وراءِ سياج الاحتلال. تلك مقالة تأسيسية رسم فيها درويش اطاراً عريضاً لدور الشعر الفلسطيني ووظيفته الاجتماعية الجمالية وكيفية تلقيه من قبل القارئ العربي.

'''

مع ذلك يخطر لي أن نثر محمود درويش اختلف باختلاف المراحل السياسية أو الظروف الشخصية التي مر بها. تمكن ملاحظة الجانب الوظيفي السياسي في بدايات كتاباته النثرية. كانت كتابة تلك الفترة نضالية مباشرة. يغلب عليها الدفاع عن الهوية والمطالبة بالمساواة القانونية مع 'المواطن' الاسرائيلي. لا عجب أن كتابات المثقفين الفلسطينيين التي تصب في هذا المجرى لم تنشر خارج فلسطين، وإن نشرت فهي لم تفهم جيداً.

هناك نصوص نثرية قليلة لدرويش من تلك الفترة تسربت الينا. فمحمود كان حارسا يقظا تجاه منجزه وما يرغب في نشره واذاعته على الملأ. هكذا لم نر كتاباته النثرية في صحافة فلسطين المحتلة عام ٤٨ لأنه لم يرغب هو في ذلك وليس لأنها غير موجودة. ممارسة درويش لدور حارس النص يتعلق بحرصه على ما يمكن أن اسميه 'المستوى الفني'. كان هذا هاجسا عند درويش. لكن الأمر لا يعني اعلاءِ الجمالي على السياسي أو الوطني.

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن هناك خطين في نثر درويش المنشور: مواكبة واقع الحال السياسي والوطني العربي والفلسطيني بقدر قليل من العدة الجمالية والبلاغية وفضاءِ هذا الخط هو الصحافة سواءٍ كانت اسبوعية أم دورية. ثم هناك نثره الذي وضعه في أعمال مخصوصة أو ذات موضوع واحد، وهذه للأسف، ليست كثيرة، أبرزها، في ظني، 'ذاكرة للنسيان' ثم 'في حضرة الغياب' الذي أعتبره امتدادا للأول رغم أن الدافع الرئيسي لكتابة الأول هو حصار بيروت بينما لا يوجد سبب معلن لكتابة الثاني سوى ما لم نكن نتوقعه وكان يهجسه في أعماقه: موته. هذان عملان يختلفان كثيرا عن نثره في الكتب التي كانت محصلة لمقالات متفرقة جمعت بين دفتي كتاب.

تصوروا شاعراً يكافح ضد كثرة الشعر عنده؟! شبه جازم أقول إن درويش كان يفعل ذلك

من نافل القول إن درويش من سادة النثر العربي، رغم الشعرية الكثيفة التي تطبع بعض هذا النثر وتكاد تنقله من خزانة النثر الى خزانة الشعر. شعرية النثر ليست أمراً ممتدحاً ولا مذموماً بحد ذاتها. الأمر يتعلق بكيف تفعل ذلك؟ إلى أي حد يتوازن النثري والشعري فلا يطمس النثري لصالح الشعري اللفظي؟ أي دور يؤديه الطابع الشعري في النثر وهل يعيق البعد المعرفي أو الوظيفي المفترض في النثر؟ درويش فعل هذا في بعض أعماله ولم يتمكن من تحقيقه في بعضها الآخر. مشكلة درويش أن شعريته طاغية وغنائيته فائضة. هو كان يعرف ذلك. صراعه، حسب ظني، كان لكبح طغيان الغنائية والتدفق التلقائي للشعر الذي يأتي، أحياناً، في غير مكانه. تصوروا شاعراً يكافح ضد كثرة الشعر عنده؟! شبه جازم أقول إن درويش كان يفعل ذلك

عن القدس العربي

خابَ سَعيُ البَحر

فاروق وادي

أذكر تماماً لقائي الأوّل بمحمود درويش. كان ذلك في مكتبه بمركز الأبحاث الفلسطيني في بيروت، عندما شغل وظيفة المدير العام للمركز. وكنتُ قد ذهبت إليه، في يوم هدأ فيه القصف، منتصف السبعينيات، لأسأله عن مخطوط رواية لكاتبة صديقة من الأرض المحتلة قال لي سهيل إدريس إنه سلّمها لمحمود بهدف إبداء الرأي. لم يُنكر محمود أنها لديه، لكنه قال إنه لم ولن يقرأها: فأنا أفضّل أن أقرأ رواية لهمنغواي على أن أبدّد وقتي في قراءة رواية لكاتبة مغمورة!

ثمّ تحوّل فجأة إلى الغمز من قناة الذين لا يجدون ما يكتبونه، فيكتبون هجوماً على الكتّاب الآخرين. وأمام دهشتي الصّامتة، أوضح الأمر بصيغة سؤال: من هو "غ. عبد القادر" الذي يكتب عندكم في مجلة "الحريّة"؟!

قلت له دون تردُّد: "أنا". وقد بدأت الأمور تتضح لديّ. قال على الفور: أعرف ذلك. رغم أنني لم ألتق بك من قبل، إلاّ أنني أعرف أنك كاتب ذلك الهجوم. وأضاف: لو كانت لديك الجرأة لكتبت باسمك الصريح. أجبته: ليس في الأمر جبن أو بطولة، فالمسألة ليست كما تعتقد، وكلّ ما في الأمر أنني لم أكتب هجوماً على أحد، أو دفاعاً عن أحد. المقالة هي قراءة نقديّة للعدد الذي أصدرته مجلة "الآداب" حول الأدب الفلسطيني، ولأنني أحد المشاركين فيه، وكُلّفتُ بالكتابة عنه، فلم يكن من اللائق، صحافياً، أن أكتب باسمي الصريح عن عدد كنتُ واحداً من كتّابه. أمّا ما تسميه هجوماً، فهو لا يعدو كونه نقداً لاستغلالك ومعين بسيسو، العدد، لمهاجمة سميح القاسم.. البعيد خلف أسواره في فلسطين.

بدا لي أن المسألة انتهت هنا، وتوضّح الأمر. غير أن زيارتي الثانية له جاءت للمكان نفسه، وبرفقة سيّدة اشتغلت معنا في دائرة الثقافة الفلسطينيّة، وكانت مكلّفة بعمل في المركز يتعلّق بمشروع إنشاء أرشيف ثقافي.

بعد أن شرحت له السيّدة فكرتها، وعرضت حاجتها من المركز، إعتذر عن تقديم المساعدة: فما لدى المركز لدى المركز.. وبإمكانكم أن تبدأوا مشروعكم من البداية.

ثمّ عاد للحديث عن الذين لا يجدون ما يكتبونه.. فيهاجمون الآخرين!

لم أردّ هذه المرّة، أو أعيد شرح وجهة نظري، فاكتفيت وتلك السيّدة بأن نحمل اعتذاره.. ونمضي شاكرين.

كنّا نمشي في شارع السادات صامتين، متوجهين نحو الروشة، عندما قالت تلك السيّدة، بعد أن طال الصّمت أكثر مما ينبغي:

ـ ليته ظلّ شاعري الأثير.. ولم أعرفه عن قُرب.. أو التقي به!

وعندما صدرت روايتي "طريق إلى البحر"، في بيروت (١٩٨٠)، أرسلت لمحمود نسخة مع أحد الأصدقاء المشتركين، مع إهداء يقول: "دعنا نتصالح في عشق البحر".

لكن يبدو أن سعي البحر، خاب آنذاك.

×××

لا أدري لماذا ظلّت تلك الفقرة القصيرة، في تلك المقالة العابرة المكتوبة باسم مستعار، تتحكّم بعلاقتي بمحمود درويش منذ لقائي الأوّل به وحتى اللقاء الأخير. ننساها أحياناً، فتبدو العلاقة على قدر كبير من الودّ والاحترام، ونتذكرها، فيتحيّن الفرصة لهجوم مباغت.

ننساها أحياناً، فتبدو العلاقة على قدر كبير من الودّ والاحترام، ويتذكرها، فيتحيّن الفرصة لهجوم مباغت.

عندما كان شاعرنا الكبير يتهيّأ لإعادة إصدار "الكرمل" من الوطن، بعد منفيين، التقيت به مصادفة في أحد مطاعم رام الله القديمة، وكنت مع الصديق محمود شقير. جاء إلينا بنفسه، سلّم بحرارة، وقال إنه يبحث عنّا كلينا، وإنه يريد أن يرانا. حددنا مواعيدنا معه، وذهبتُ إليه منفرداً في اليوم التالي، لنلتقي بمكتبه الأنيق، في مركز خليل السكاكيني، المزيّن بلوحاتٍ متميّزة لفنانين فلسطينيين.

لامني لأنني لم أكتب للـ"الكرمل" من قبل، فأفصحت له عن رأيي في المجلّة، وملخصه أنه إذا كانت المجلات الثقافيّة نخبويّة بطبيعتها، فإن "الكرمل" ظلّت لنخبة النخبة، وأنني كنتُ أجد أنه من الصّعب عليّ كسر تلك الدائرة الضيّقة من الكتّاب الذين أرادتهم المجلّة لنفسها، وقد بقيتُ أخشى أن أقابل بالرفض، لأنني لست واحداً منهم.

بدا متفهماً لوجهة نظري، أو إنه شاء أن لا ينفيها، وقال بأنه طلب لقائي لهذا الهدف. ثمّ كلّفني بكتابة مادة عن رام الله لزاوية جديدة في "الكرمل" ستحمل عنوان "ذاكرة المكان.. مكان الذاكرة"، باعتباري ابن المدينة التي لم يغب حضورها عن نصوصي. أبديت له سروري بتكليفه، واستعدادي لإنجاز المادة في الوقت الذي حدّده. وفي آخر اللقاء استخرج ورقة صغيرة، وكتب عليها رقم هاتفه، متمنياً عليّ أن أتصل به في عمّان، حيث أقيم، وأزوره في بيته هناك، لنواصل حديثنا.

كان محمود في ذلك اللقاء ودوداً كما لم يكن من قبل. والحقيقة أن ثقته بي، وتكليفه لي بكتابة تلك المادة، وضعاني أمام مسؤوليّة كبيرة، فعملتُ جاهداً كي أكون بمستوى تلك الثقة.

وعندما التقيته بعد شهرين أو ثلاثة في "دارة الفنون"، أكدت له أنني ما زلتُ ملتزماً بالتاريخ لتسليم المادة. ولكن..!!

لم أكمل عبارتي، فقال دون تردُّد، وقد التقط بذكائه الفذّ ما وراء تلك المفردة التي بترت ما وراءها: ولكن المادة طالت معك.. ووجدت نفسك متورطاً في كتاب!

قلت له: سأرسل لك الكتاب وأنت تختار ما يعجبك.

هكذا ولد كتاب "منازل القلب: كتاب رام الله"، الذي أشرت سابقاً، وفي غير موقع، إلى أنه لم يكن ليُكتب، لولا تحريض محمود درويش، واعتزازي بتكليفه.

×××

زرتُ محمود درويش في بيته في عمّان برفقة الصديق الشّاعر إبراهيم نصر الله. كانت المرّة الأولى والأخيرة التي أدخل فيها ذلك البيت. حدث ذلك أوائل ١٩٩٧. ولم تكن الكرمل قد عادت للصدور بعد. بدا مزاجياً، نزقاً وعدوانياً، دون سبب ظاهر، ولا ينتمي لمحمود، اللطيف والودود، الذي عرفته عند لقائي السّابق به، في مكتبه برام الله.

عندما خرجنا، سألت إبراهيم إن كان قد رأى فيلم "أضواء المدينة" لشارلي شابلن، وعندما أومأ بالإيجاب، قلت له إنني لا أستطيع تفسير علاقة محمود درويش بي، وعواطفه نحوي، في تشبه عواطف ذلك البورجوازي الذي إذا ما شرب وانتشى، بالغ بالترحيب وإظهار الودّ نحو المتشرِّد "شارلو". وإذا ما استيقظ في الصباح على صداع الإفراط في الشرب، تحوّل إلى كائن عدواني.. وطرد المشرّد من عالمه. وهكذا، يتكرّر الأمر في الليلة التالية. وأضفت: إنني أشبه ما أكون بذلك المشرّد الذي لا يعرف كيف سيكون سلوك صديقه البورجوازي في المرّة القادمة!

ثمّ أضفت بشكل حاسم: يبدو أنها ستكون المرّة الأخيرة التي تطأ فيها قدماي هذا البيت.

وقد كان!

×××

لو كنتُ أعرف أن محمود درويش مسافر إلى موته، لما ترددت في كسر ذلك القرار القديم، ولعدتُ إلى ذلك البيت الذي احتوى مقاماً شعرياً عالياً أسهم في صياغة وعينا وذائقتنا الجماليّة. لكنتُ قد يممت فوراً صوب بيت بات يسكنه الغبار الآن، وحرّضتُ البحر من جديد، علّ سعي البحر لا يخيب هذه المرّة.

لكنني اكتفيت باستقبال جسد محمود المسجى في نعشه، والمهيّأ لتراب رام الله التي نعشق، حين هبط على أرض المطار العسكري في عمّان، في طريقه إلى الوطن، وأن أذرف دمعة مع الإيقاع الحزين لمارسيل خليفة، قبل أن تقلع به الطائرة نحو مستقره الأخير.. وهدفه الذي أعلنه في لحظة كان يقف فيها على أبواب الوطن: "طموحي الآن.. قبر في بلادي"!

مكتبه في «السكاكيني»

إعداد: رفيا سليمان (رمّان)

أثناءِ تواجـده فـي رام الله، اعتاد محمود أن يقضي سـاعات النهار فـي مكتبـه الكائن بمركـز خليل السـكاكيني الثقافـي، وهـو ذات المكان الذي اسـتأنف منه رئاسة تحرير مجلة "الكرمل" والإشـراف عليها بعـد أن أطلقها في بيـروت مطلـع الثمانينيات وحملهـا معه إلى قبـرص لعقد مـن الزمان في أعقاب الغزو الإسرائيلي علـى لبنـان. وفـي حديث خاطـف مـع السـيد 'عبـدً الجعبـة' –مديـر المركز– أخبرنا بـأن محمـود كان يحب هـذا المكان بعمق، وقد تجلى ذلك في أحد نصوص ديوانه «أثر الفراشة».

ولحسـن حظنـا في ذلـك اليوم، الرابع عشـر من نيسـان ٢٠١٠، كانت أبواب ونوافذ مكتب الشـاعر الغائب مفتوحة علـى مصراعيها لأول مرة منذ زمن –ليس بقريب– لتهوئة المكان، وسـمح لنا السـيد الجعبة –بلباقته المعهودة– بإطلالـة سـريعة وبعـضٍ من الصـور لمكتب الشاعر الذي بدا وكأنه قد غادر المكان للتو..

"كان يأمـل قبل رحلة العلاج الأخيرة أن يصدر العدد (٩٠) من الكرمل، ولكن كان أوان الرحيل قد آن... فاتفقنا في المركز مع عدد من الكتاب الفلسـطينيين –بالإجماع– علـى إصدار العدد (٩٠ والأخير) من المجلة، وكان له ما أراد يوما أن يكون!" يقول الجعبة.

مركز خليل السـكاكيني الثقافي هو مؤسسـة غيـر حكومية وغير ربحية. تأسـس في مدينة رام الله عام ١٩٩٦ ليشكل رافداً جديداً للفعل الثقافي الفلسـطيني في أفقه المسـتقبلي حيث تتـزاوج جماليات المـكان وجماليات الإبداعات التـي يحتضنهـا، وذلك من خـلال تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية؛

تنميـة الفنـون المرئيـة وتطويـر المهـارات الإبداعية للفنانين التشكيليين ورعاية المواهب الجديدة وعرض الأعمال الفنية.

توثيـق ونشـر الروايـة الفلسـطينية من خلال تنظيـم برامـج تسـرد –بحميميّـة وإبـداع– التجربة الفلسطينية الإنسـانية، وتطوير برامج تبحث في مكونات التراث الثقافي الفلسـطيني والذاكرة الفلسطينية الجماعية.

إنعاش الحياة الثقافية وتقديم برامج وأنشطة متنوعة بصورة منتظمة للجمهور، مع التركيز على إيجاد جمهور جديد للثقافة والفنون بين شرائح المجتمع والفئات العمريّة المختلفة.

http://www.sakakini.org

جميع صور مركز السكاكيني ومكتب درويش خاصة بـ رمّان
حقوق نشرها محفوظة لرفيا سليمان

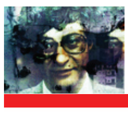

أجمل ما قال درويش.. كما يختارونها

إعداد: رفيا سليمان (رمّان)

طلال حمّاد (شاعر وكاتب فلسطيني، تونس): أنا أحمد العربي، فليأت الحصار.. جسدي هو الأسوار، فليأت الحصار.. وأنا حدود النار فليأت الحصار.. وأنا أحاصركم.. أحاصركم.. وصدري باب كل الناس، فليأت الحصار..

هناءِ الرملي (مخرجة وكاتبة فلسطينية، الأردن): فلسطينية العينين والوشم، فلسطينية الإسم، فلسطينية الأحلام والهم، فلسطينية المنديل والقدمين والجسم، فلسطينية الكلمات والصمت، فلسطينية الصوت، فلسطينية الميلاد والموت..

سحر الصالح (فلسطينية، الإمارات): سجل أنا عربي، ورقم بطاقتي خمسون ألف، وأطفالي ثمانية وتاسعهم سيأتي بعد صيف.. فهل تغضب؟ سجل أنا عربي، وأعمل مع رفاق الكدح في محجر، وأطفالي ثمانية أسل لهم رغيف الخبز والأثواب والدفتر، من الصخر، ولا أتوسل الصدقات من بابك، ولا أصغر، أمام بلاط أعتابك، فهل تغضب؟ سجل أنا عربي، أنا اسم بلا لقب، صبور في بلاد كل ما فيها يعيش بفورة الغضب، جذوري قبل ميلاد الزمان رست وقبل تفتح الحقب وقبل السرو والزيتون وقبل ترعرع العشب، أبي من أسرة المحراث لا من سادة نجب، وجدي كان فلاحاً بلا حسب ولا نسب،
يعلمني شموخ الشمس قبل قراءةِ الكتب، وبيتي كوخ ناطور من الأعواد والقصب، فهل ترضيك منزلتي؟ أنا إسم بلا لقب.. سجل.. أنا عربي، ولون الشعر فحمي ولون العين بني، وميزاتي على رأسي عقال فوق كوفية، وكفي صلبة كالصخر
تخمش من يلامسها، وعنواني: أنا من قرية عزلاءِ منسية، شوارعها بلا أسماءٍ وكل رجالها في الحقل والمحجر يحبون الشيوعية، فهل تغضب؟ سجل.. أنا عربي، أنا عربي، سلبت كروم أجدادي وأرضاً كنت أفلحها أنا وجميع أولادي، ولم تترك لنا ولكل أحفادي سوى هذي الصخور، فهل ستأخذها حكومتكم كما قيلا؟ إذن، سجل برأس الصفحة الأولى، أنا لا أكره، الناس ولا أسطو على أحد، ولكني إذا ما جعت آكل لحم مغتصبي.. حذار حذار، من جوعي، ومن غضبي..

حسام عابد (مسرحي فلسطيني، الأردن): وأشبه نفسي حين أعلِّق نفسي على عنقٍ لا تعانق غير الغمام..

د. علي الدبّاغ (فلسطيني، الإمارات): لا وقت للغد... أَمِشي، أهرولُ، أركضُ، أصعدُ، أنزلُ، أصرخُ، أَنبحُ، أَعوي، أنادي، أوَلولُ، أسرعُ، أبطِئ، أهوي، أَخِفّ، أجفّ، أسيرُ، أطيَرُ، أرى، لا أَرى، أتعثّرُ، أَصفرُّ، أخضرُّ، أزرقُّ، أنشقُّ، أجهشُ، أعطشُ، أتعبُ، أسغَبُ، أسقِطُ، أنهضُ، أركضُ، أَنسى، أرى، لا أرى، أتذكّر، أَسمعُ، أبصِرُ، أهذي، أُهَلْوِس، أهمسُ، أصرخُ، لا أستطيعُ، أَئنُّ، أجنُّ، أَضِلُّ، أَقِلُّ، وأكثرُ، أسقطُ، أعلو، وأهبطُ، أَدْمى، ويغمى عليّ..

سليم البيك (كاتب فلسطيني، الإمارات): من سوءِ حظّيَ أني نجوت مراراً من الموت حبّاً.. ومن حُسْن حظّي أنيَ ما زلت حيّاً لأدخل في التجربةْ..

دنيس أسعد (حكواتية فلسطينية، فلسطين): عندما كنت جميلا وصغيرا، كانت الوردة داري والينابيع بحاري..

محمد حنّون (فوتوغرافي وكاتب فلسطيني، الأردن): خيارنا الوحيد هو الانتماءِ إلى الإبداع في الثورة والثورة في الإبداع ـــــ من إفتتاحية العدد الأول لمجلة الكرمل عام ١٩٨١ (بيان الكرمل: نلم فتات الضوءِ)..

كريم أيوب (صحافي فلسطيني، أمريكا): تضيق بنا الأرض.. تحشرنا في الممر الأخير.. فنخلع أعضاءِنا كي نمرّ..

سيف أبو كشك (ناشط فلسطيني، إسبانيا): فلسطينية العينين والوشم، فلسطينية الإسم، فلسطينية الأحلام والهم، فلسطينية المنديل والقدمين والجسم، فلسطينية الكلمات والصمت، فلسطينية الصوت، فلسطينية الميلاد والموت..

أمل بيروك (صحافية جزائرية، فرنسا): سجل برأس الصفحة الأولى، أنا لا أكره، الناس ولا أسطو على أحد، ولكني إذا ما جعت آكل لحم مغتصبي.. حذار حذار، من جوعي، ومن غضبي..

مصطفى ميعاري (إعلامي فلسطيني، روسيا): فالبيوت تموت إذا غاب سكانها..

أسماءِ عزايزة (صحافية فلسطينية، فلسطين): يا حب.. لا هدف لنا إلاّ الهزيمة في حروبك.. فانتصر، أنت انتصر، واسمع مديحك من ضحاياك.. انتصر سلمت يداك، وعد إلينا خاسرين وسالمًا..

بسمه سنقرط (فلسطينية، فلسطين): أيها المارون بين الكلمات العابرة، احملوا أسماءِكم وانصرفوا..

محمد السعايدة (أردني، الأردن): أحن إلى خبز أمي وقهوة أمي..

محمد عراقي (مصري، قطر): وأنت تعد فطورك، فكر بغيرك، لا تنس قوت الحمام.. وأنت تخوض حروبك، فكر بغيرك، لا تنس من يطلبون السلام..

نضال جرار (فلسطيني، الأردن): وأنت تعود إلى البيت بيتك، فكّر بغيرك، لا تنس شعب الخيام..

نور العزّة (فلسطينية، الأردن): لم يعرفوني، آه... لا تتركي كفّي بلا شمسٍ، لأن الشجر يعرفني..

تعرفني كل أغاني المطر.. لا تتركيني شاحباً كالقمر! كلّ العصافير التي لاحقت كفى على باب المطار البعيد، كل حقول القمح، كل السجون، كل القبور البيض كل الحدود، كل المناديل التي لوحت، كل العيون كانت معي، لكنهم قد أسقطوها من جواز السفر..

مهنّد الزريقي (فلسطيني، الأردن): تحدَّث إليها كما يتحدث نايٌ إلى وتر خائف في الكمان، كأنكما شاهدان على ما يعدُّ غدٌ لكما، و انتظرها.. ولمِّع لها ليلها خاتماً خاتماً، و انتظرها إلى أن يقول لك الليل: لم يبق غيركما في الوجود، فخذها -برفقٍ- إلى موتك المشتهى، و انتظرها..

علاءِ عطاري (فلسطيني، الأردن): أمر باسمك إذ أخلو إلى نفسي، كما يمر دمشقيٌّ بأندلسٍ..

علا السموري (فلسطينية، الأردن): لا شئ يكسرنا ، وتنكسر البلاد على أصابعنا كفخارِ ، وينكسر المسدس من تلهفكَ.. انتصرْ ، هذا الصباح ، ووحّد الرايات والامم الحزينة والفصول.. كلّ ما أوتيت من شبق الحياة بطلقة الطلقات... باللاشيءِ... وحّدنا بمعجزةٍ فلسطينية..

آية أبو علي (فلسطينية، الأردن): قل للغياب نقصتني و أنا حضرت لأكملك..

تامر الزق (فلسطيني، الأردن): على هذه الأرض ما يستحقّ الحياةْ.. على هذه الأرض، سيدةُ الأرض.. أم البدايات، أم النهايات.. كانت تسمى فلسطين، صارتْ تسمى فلسطين.. سيدتي.. أستحق، لأنك سيدتي، أستحق الحياة..

هناءِ حوراني (فلسطينية، السعودية): وأعشق عمري، لأني إذا متُّ أخجل من دمع أمي..

هبة أبو ستة (فلسطينية، قطر): أحبك خضراءِ، يا أرض خضراءِ، تفاحة تتموَّجِ في الضوءِ والماءِ، خضراءِ.. ليلُكِ أخضر، فجرك أخضر.. فلتزرعيني برفق، برفق يَدِ الأم، في حفنة من هواءِ.. أَنا بذرة من بذورك، خضراءِ..

شادي حبش (فلسطيني، قطر): أيها المارون بين الكلمات العابرة، احملوا أسماءِكم وانصرفوا..

بيروت العابدي (تونس): أيها الولدُ المكرّسُ للندى، قاومْ! يا أيها البلدُ المسدّسُ في دمي، قاومْ! الآن أكملُ فيكَ أغنيتي وأذهبُ في حصارك، والآن أكملُ فيكَ أسئلتي وأولدُ من غبارك، فاذهبْ إلى قلبي، تجد شعبي شعوباً في انفجارك..

نور سليمان (فلسطينية، قطر): وأنت تعود إلى البيت بيتك، فكّر بغيرك، لا تنس شعب الخيام..

حنين أبو جلالة (فلسطينية، أمريكا): أيها المارون بين الكلمات العابرة.. إحملوا أسماءِكم وانصرفوا.. واسرقوا ما شئتم من زرقة البحر ورمل الذاكرة.. وخذوا ما شئتم من صور، كي تعرفوا أنكم لن تعرفوا، كيف يبني حجر من أرضنا سقف السماءِ..

منار فرج (فلسطينية، أمريكا): فإن أسباب الوفاة كثيرة، من بينها: وجع الحياة..

آلاءِ القطو (فلسطينية، الكويت): عربٌ أطاعوا رومهم، عربٌ وباعوا روحهم، عربٌ وضاعوا، سقط القناع..

رحمة حجة (فلسطينية، فلسطين): سيري ببطءٍ يا حياة لكي أراكِ. بكامل النقصان حولي. كمْ نسيتك في خضمك. باحثاً عني وعنكِ..

حنين حسين (فلسطينية، قطر) & مريم معتصم (فلسطينية، قطر): وأنتَ تُعدُّ فطورك، فكِّر بغيرِكَ، لا تَنْسَ قوتَ الحمَام.. وأنتَ تخوضُ حروبكَ، فكِّر بغيركَ، لا تنس مَنْ يطلبون السلام.. وأنتَ تسدد فاتورةَ الماءِ، فكِّر بغيركَ، مَنْ يرضَعُون الغمام.. وأنتَ تعودُ إلى البيت، بيتكَ، فكِّر بغيركَ، لا تنس شعب الخيامْ.. وأنت تنام وتُحصي الكواكبَ، فكِّر بغيركَ، ثمّةَ مَنْ لم يجد حيّزاً للمنام.. وأنت تحرّر نفسك بالاستعارات، فكِّر بغيركَ، مَنْ فقدوا حقَّهم في الكلام.. وأنت تفكر بالآخرين البعيدين، فكِّر بنفسك، قُلْ: ليتني شمعةُ في الظلام!

أحمد الحمّوري (فلسطيني، أمريكا): أحن إلى خبز أمي وقهوة أمي ولمسة أمي..

منال جاد الله (فلسطينية، الأردن): الهوية هي ما نُورث لا ما نَرث.. ما نخترع لا ما نتذكر.. الهوية هي فسادُ المرَآة التي يجب أن نكسرها كُلَّما أعجبتنا الصورة..

أمل الشمري (الكويت): هاجروا.. أخذوا المكان وهاجروا.. أخذوا الزمان وهاجروا.. أخذوا روائحهم عن الفخار والكلأ الشحيح وهاجروا.. أخذوا الكلام، وهاجر القلب القتيل معهم..

سيف مساعدة (أردني، الأردن): وأنت تُعد فطورك، فكر بغيرك، لا تنسَ قوت الحمام..

محمد حلّوم (فلسطيني، الإمارات): على هذه الأرض ما يستحق الحياة..

عبد العزيز دلول (فلسطين، قطر): السعادة مادة روحية يختلف على تعريفها من يتفقون على أن الحظ موهبة، والموهبة حظ، ويختلف على مديحها من يملكونها ويدخرونها في صندوق مقفل، وما هي إلا رشوة من المستحيل.. المستحيل هو الممكن الطموح، يخرج إلى الشارع شاهراً مقصاً لتقليم الأغصان اليابسة والأفكار، وتعليم الحالم إدارة النهار على وتيرة ما يرى.. يرى أن رفرفة أجنحة الفراشة، في مروحة اللون، هي أفضل علاج للألم..

مأمون أبو غزالة (فلسطيني، الأردن): وعلينا ما عليكم من سماءٍ وهواءٍ، فخذوا حصتكم من دمنا وانصرفوا..

أحمد أبو نصر (فلسطيني، تونس): هو الحبُّ.. يفتح أبوابه للجميعِ.. كمقهى يزيد وينقُصُ وَفْق المُناخ: إذا هَطَلَ المطرُ ازداد رُوّادُهُ، وإذا اعتدل الجو قلُّوا وملُّوا.. أنا ههنا - يا غريبةُ - في الركن أجلس.. ما لون عينيكِ؟ ما اسمكِ؟ كيف أناديك حين تَمُرِّين بي، وأنا جالس في انتظاركِ؟ مقهى صغيرٌ هو الحبُّ.. أطلب كأسي نبيذٍ وأَشرب نخبي ونخبكِ.. أحمل قبّعتين وشمسية.. إنها تمطر الآن، تمطر أكثر من أي يوم، ولا تدخلين.. أقول لنفسي أخيراً: لعلّ التي كنت أنتظرُ انتظرَتْني ... أو انتظرتْ رجلاً آخرَ - انتظرتنا ولم تتعرف عليه/ عليَّ، وكانت تقول: أنا ههنا في انتظارك.. ما لون عينيكِ؟ أي نبيذٍ تحبُّ؟ وما اسمكَ؟ كيف أناديك حين تَمُر أمامي؟

إيمان جرادات (فلسطينية، الأردن): أَنا حبّة القمح التي ماتت لكي تخضرَّ ثانيةً وفي موتي حياةٌ ما..

سيفان باكير (تركي، الأردن): سأَصير يوماً كرمةً، فليعتصرني الصيفُ منذ الآن، وليشربْ نبيذي العابرون على ثُريّات المكان السُكّريّ.. أنا الرسالةُ والرسولُ، أنا العناوينُ الصغيرةُ والبريدُ.. سأصير يوماً ما أُريد..

سارة حسين (فلسطينية، قطر): واسمي، وإن أخطأتُ لفظ اسمي بخمسة أحرف أفقيّة التكوين لي: «ميمُ» المُتيّمُ والمُيتّمُ والمُتمِّمُ ما مضى... «حاءُ» الحديقةُ والحبيبةُ، حيرتان وحسرتان... «ميمُ» المغامرُ والمُعدُّ المستعدُّ لموته الموعود، منفياً، مريض المشتهى... «واو» الوداع، الوردة الوسطى، ولاءٌ للولادة أينما وجدت، ووعْد الوالدَين... «دال» الدليلُ، الدربُ، دمعةُ دارة درسَت، ودوريٌّ يُدلّلني ويُدميني... وهذا الاسمُ لي، ولأصدقائي، أينما كانوا...

مؤلفات لدرويش

غبارٌ قليل

سمر عبد الجابر

(إلى محمود درويش)

على الطّاولة
كتابٌ لم يكمل قراءته

على حبل الغسيل
قميصان
يحرّكهما هواءٌ خفيف

فوق المغسلة
فرشاة أسنان و شفرة حلاقة
و بقايا بقع صغيرة من المياه على المرآة

في الشرفة
فنجان قهوة
ترسّب أسودها في قعره

في الخزانة
فرشاة شعر
و زجاجة عطّر
و ربطة عنقٍ جديدة

بجانب السرير
جريدةٌ مطويّة
و كوب ماءٍ ناقصٌ بعضاً
و ساعة يدٍ غير معطّلة

على الأثاث
فقط
غبار قليل.

٩-٨-٢٠٠٨ (عشية وفاته)

قهوة درويش

إشراق كرونة

الكلام علـــى الكلام صعــب.. الجــاحظ

امتــزج عـــبــق القهوة في نـصّ محمود درويـــش الموســـوم بعنـــوان "ذاكـرة للنسيـــــان " بـــرائحــة البـارود حتّـى غلـب عليـهـا وأثبـــت جـدارة بيـروت بالحيـــاة ..

كتــبَ البُــن (الحبر) على السّكر الخشـــن (الــورق) قصّة عشـــق بين شـاعر محاصر وقهوة حبيبة .

كان هــذا النـصّ قد كـُتب أيـّـام حصـار بيــــروت سنة ١٩٨٢، وقد تنـــاول يوميّات الحزن العادي .

كــان همّ محمود درويــــش الأول القهوة " الصّباحية العذراءِ " ..

نأنــس بيـســر قـــدر مـــن التّـــوافـق بينهما ، نـسـمع ضجيـــج صمتهما متجاهلين أزيــز القذائـف، نتأمل جيدا فــي علاقتهما: محمود والقهوة، عاشـقان يمارسان طقوس صباحهمــا، يذوبــان فــي نظـــرة. فالقهوة تجلس كالحديقة في أوج زينتــها في فنجان أبيــض، تتأمّل شفتيـــن تنحنيـــان وتقبّـلان ظلّهــا، وشـــاعر يتلقّـف فنجانــه ويتيــح لنفســـه فرصة تأمّلـه بشـبق ثـم يحمله " برفق يد الأم " كأنه يحمل عنها ندى الصّباح، يرتمـــي على بسـمـــات كسلـها " هي أخت الوقت،، تشـرب على مهل " .

هــذا الجمع بين عاشـقين يدفعنــا أكثر إلى احتــواءِ طاقة تأمّـل أكبــر لننصت إلى حوار الصّمت بينهمــا، يترجمه لنا نفاث سـيجارته تمضغ ظل الحرب .. في نفاث السّيجارة نلمح المســافة بين حــرب تمضي في جهــة الريح وبين رائحــة قهوة تــُخرج مــن ليلها الحار تنهّـــدات بنفسـج فوضويّ الأحـلام، تـؤرخ قصّة حب بينها وبين شاعرها وتؤرخ – حين نطلّ من النافذة المواجهة للبحر – لمــاض نصعـــد منه إلى حاضرنا كما نريد أن نكون فيـه، رائحــة تخمـد عبثيّـــة الحاضـر.. أو تدفعه لفوضى أكبر...!

يقــول لها : لقاؤنا لا يتـم إلا وداعا والغموض طريق إلى اللّـــقاءِ، وأنتِ يـــا قهوتي الدليل إلـــى ليلي الحار وإلى آثار موتنا المشـتهى. فتــردّ: هذه معجزة البــنّ ، هناك الشّــعر يصيبك ســـرّا بعدوى الكتابة، هناك تشربني على مهل ليسـيل حليب اللّيل وتكتب ذاكرة للنسيـــان .

تنفـــث القهوة ريــحا من شـفتيـها وتحكُ جناح الفنجــان، ليطيل الشــاعر التّـأمل أكثر ويزداد الحنين .

يغرينا إصرارها الأنثويّ الرائــع ..

ننحنـــي أمــام صمتهمــا أكثــر ، ثم نتسـلّـق – بهــوس فضولــيّ عـــال - درج التّـأمّل في حوار القهوة مع السّـيجارة والشــاعر. يقول : لا نصيــب لنا مــن مطر الخريــف مادام آب حارا. فتهمس: هل متّ ؟ قال : لا . فتمتــمـت : لا تمــت لئلا أوقظ المنام .فتســــاءِل: كيف يموت قلب يدمن القهوة ؟ فتنهّدت: لا تمت أبدا .

يصمت العاشــقان،، ينفـــث كلّ منهما دخان صمته ويتّـخذ كل واحد شكلا جديدا للموت ولكنهما معــا يطفئان نار بيـــروت في رمّادة جرحهما . يبتسم فتبتسم. يرتشف الشاعر ظل الكلام وترتشــف هي رائحة البارود وتنهّــد البنفسج بينهما ومعا يحتسيان ظل الحصار ..

تقــول: اكتبنـــي بماءِ الـكلام،، بسـنابل الزنبق فيقول: ســأكتبك بماءِ خمري المعتق فتسأل: هل هناك متسع إلى الموت بعد هذا الفجر ؟ فيــردّ: لا يزال هناك متّسع من الوقت لنثبّـت قــدم فجرنا الآتـــي ولنطيل التأمل فـي قبلة لا تصـل. فأضافت: ليـس مهـمّــا أن تصــل، فالمهـمّ الدأب على محاولة إيصالـــها دون مـلـــل ودون الرجوع إلـــى طبيب الذاكرة . فالحـــب – كالشّـعر في هشاشــتـه ، يحتاج معاينة طبّـية .. .

يبقى ظل الكلام بينهما، يوقظ شراسة الجنون والأحـلام فينــا ، يحتــرف لغة الصّمــت أكثر، ويخجل كنرجسة أنهكها الحب .

بينهما.. نطرب لإيقاع الحيـــاة ونأنس لدفـءِ القهوة ودفـءِ الخجل المرتسم على مبسمه، كل يشـدنا إلى شـبــق التأمل: هي بأنانيّــة أنثـــى تنتشـــر فـــي خلايــاه وهــو بخجل "درويشـــيّ " يجعلنــا أوثـق صلــة وأقــلّ إحباطــا، يـُنمــي فينــا شـهوة الحنيــن إلى أشيـــاءِ غامضة ...

يتّـخذان موقعــا جديدا يتـلاءم مع نمطيّة الحصــار، ومــع عـــدم اكتراثهمــا ... يغــرق الصّمــت في غبـش الرصـاص ويقــف علي حافّــة القيامــة، أما همــا - و قــد امتلآ بكلّ أسـباب الصّمت - أطلقا دولة بين رصاصتين، يتأمّـــلان صمتهما. يقـــول: القهوة لمن أدمنها مثلي مفتاح النهار. فـتدنــدن: مـــازال خمر في جرارنا للعيد .

يخــدش البــنّ فخــذ الفنجــان، والشــاعر المتمرس يمتصّ صمته وسيجارته فينــدفع أكثر إلى برودة التأمل. تصيح القهوة من لبّ بنهـــا: من أين الطريق إلـــى قرطبة؟ فيقول: من أين الطريق إلى أوّل النخـــل ؟

وصمتا مجدّدا عند مسافــة قبلة لا تصل... لا هي تراه الآن ولا هو يراها. لا شـــيءِ سوى الضّباب، وملامح شردتها الرياح، لا ترى سوى ما لا يـُـرى من أمام نفاث سـيجارته، يشعل سـيجارة ويطفئ نارها فـــي جرحها وملحها.. وحبرها !

القصـــف في الخــارج متواصل فهذه شـهوة الإنتقــام وهمــا ملاكــان يسـتكملان طقوس صمتهمــا وحالة العشــق. قـــال لهــا: "عيناكِ قدري". أطفــأ كواكب جســده، فأشـــعلت نور فنجانها الأبيض وخلدت إلـــى الزّمـــان الرّخـــو .

لا أريــد غير رائحة القهوة ..

يغادر الحصـــار ويبقيـــان... هو هادئ وهي حــارّة أما الحصـــار فقـــد جاءِ وأطبـــق !

أواخر نيسان ٢٠١٠

أهلاً دائماً .. أيها الأمير

طلال حمّاد

لن أرثيك
فالرثاءِ للميّت
وأنت فينا لم تمت
أنت الحيّ الوحيد.. وكلنا هباءٍ
كلنا.. من يركض ليلصق صورتك
به.. ليرى نفسه
ويشمخ برأسه التي بلا عُنُق تحملُهُ
ومن يسـهب في وصـفٍ صداَقته..
لك
أو.. صداقتك أنت.. له
وهو لا يرى قامتـه التي تقصر كلما
ادّعى محبتك.. اللاحقة
أما السابقة
فمـن يـدري ـ أنت تـدري ـ أين
كانت
وفي أيّ وحل وشاية تغوص؟

لست أهلاً.. مثلهم
لكي أرثيك كي أرثك
لست مثلهم..
أحتاج إلى ذكرك..
لكي أكون
من أكون؟
تسألني رفيا:
ألك ذكريات معه؟
وما الذي وددت لو قلته له؟
رفيا.. من منا لا يعرفه؟

لكن.. كم منا من يذكر؟
بعضنا.. ويصمت
وبعضنا.. ويدّعي..
والحقّ أنّه كان الأمير بيننا.. لنا
وكلّنا.. لم نكن.. إلاّ لنا
ولنا الآن..
كلٌّ ما له
ولمحمود ما لغيره الآن:
إسمه

ورسمه
والكتاب الذي..
إن قرأته..
عرفته
وإن حفظته
حفظتك باسمك
وما اسمك إلاّ بعض..
مما لم يأخذه معه
وطن في قصيدة

وقصيدة تريد هوية
وهوية تقاتل من أجلنا..
فما نحن إلاّ الوطن
فعن أية ذكريات لي معه أحدثك..
وهو كلّ شيءٍ.. له
له.. وليس لي غير أن أذكره
وأنحني.. وأخلع قبّعتي.. وأقول:
أهلاً بالأمير..
وأعــود ـ مثلماعوّدتــه ـ إلى حيث

أكون
فلا أجمل من أن تترك الشاعر..
بعد رحلته
في لغة القصيدة المضنية
إلى راحته؟

٢٩ نيسان ٢٠١٠

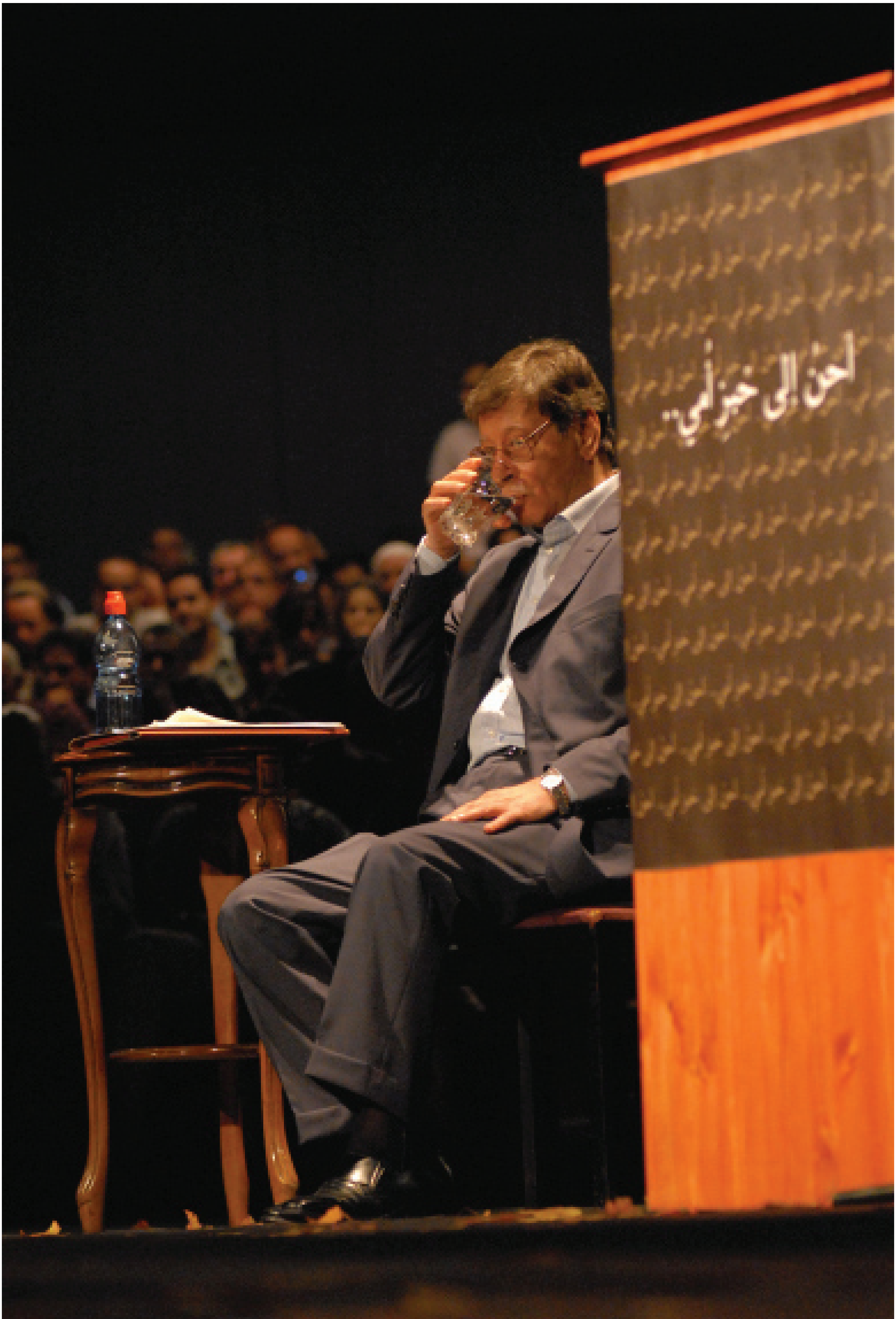

من أمسية حيفا التاريخية- تصوير باسل طنّوس- خاص رمّان

مما كُتب عن درويش في رحيله.. المقال الوحيد الذي نعيد نشره لأهميته

محمود درويش الذي عرفت

عبد الباري عطوان \ رئيس تحرير «القدس العربي»

ن عندما التقيته للمرة الأخيرة، قبل ثلاثة أسابيع، على مائدة عشاء في مطعم ايطالي اختاره بعناية في جادة 'سان جرمان' المفضلة للشعراء والكتّاب والمثقفين في العاصمة الفرنسية 'باريس'، وبحضور الصديق المشترك، الناقد والأديب صبحي الحديدي، كان محمود درويش قلقاً لسببين، الأول أن القنصلية الأمريكية في القدس المحتلة لم تمنحه تأشيرة دخول (فيزا) لمراجعة المستشفى المتخصص بالشرايين في هيوستن رغم أنه تقدم بطلب في هذا الخصوص قبل أربعة أشهر، والثاني ان نتائج الفحوص الأخيرة التي أجراها لدى طبيبه في باريس لم تكن مطمئنة، فالشريان الأورطي متضخم ويمكن أن ينفجر في أي لحظة، ولا علاج إلا بعملية زرع اخرى، ولكن العملية مثلما قال له الطبيب الفرنسي تعني أحد أمرين.. الموت أو الشلل شبه الكامل. سألني بغتة عما اذا كان جسمي مؤلفا للكوليسترول مثل جسمه.. لم يتركني أجيب وواصل قائلا بأن عقله يكتب الشعر، وجسمه 'يؤلف' الكوليسترول اللعين، ويبدو... واصل مازحاً، أن انتاج الجسم أغزر كثيراً من انتاج العقل، ولكنه انتاج قاتل للأسف.

غيّرنا موضوع الحديث، وانتقلنا إلى موضوع تأشيرة الدخول التي ينتظرها، ويستعجلها، وكأنه يستعجل شهادته، ولقاء ربه، كان غاضباً على الأمريكان، ومعاملتهم له وكأنه زوج ابنة اسامة بن لادن أو أخته، أخذوا بصماته، وطلبوا منه توقيع عدة طلبات مرفوقة برزمة من التحاليل الطبية والرسائل المتبادلة مع المستشفى الأمريكي، ومع ذلك ورغم وساطة الرئيس 'محمود عباس، وتدخل السيدة كوندوليزا رايس مثلما همس البعض في أذني لاحقاً، فقد كان الجواب دائماً بأن الرد لم يأت بالموافقة من وزارة الأمن الداخلي، وعليه الانتظار.

لم يحدث أن اسيء فهم شخص في الثقافة العربية مثل محمود درويش، حيث ظلت تهمة الغرور تلاحقه من قبل الكثيرين، ولكنه لم يكن مغروراً ولا متكبراً، وانما شخص 'خجول' لا يفضل الاختلاط كثيرا بمن لا يعرف، ويتجنب الثناء والاطراء

امتد بنا الحديث في ردهة فندقه المفضل، وهو بالمناسبة الفندق نفسه الذي كان يرتاده الراحل ادوارد سعيد، حتى الساعة الثانية والنصف صباحاً، وشعرت انه يخشى الليل ويستعجل الصباح، أو ربما أراد أن يطيل أمد اللقاء، والأحاديث عن شعراء قصيدة النثر الذي قال انهم دمروا الشعر، ووصفهم بالفدائيين الذين يملكون جرأة غير عادية في القاء شعرهم في قاعات خالية إلا من بعض اصدقائهم وزوجاتهم وبعض الأقارب.

كان يخشى هؤلاء، ويبتعد عن الصدام معهم فهم مراكز قوى مدججة بالأسلحة، أو 'مافيات' تهيمن على الصفحات الثقافية في الصحف والمجلات العربية، ويجاملون بعضهم البعض، ويكرهون بعضهم البعض، واذا تصالحوا فلفترة قصيرة كان يسميها 'تحالفات الخمس دقائق'، ولكنهم والرأي للمرحوم محمود، يتوحدون ضد غيرهم من شعراء الوزن والموسيقى، ناهيك عن شعراء القوافي. قلت له سنلتقي في باريس لنحتفل بسلامتك، عندما تتوقف فيها في طريق عودتك، وفي المطعم نفسه المتخصص بطبق الحبّار الذي تحب.

نظر إليّ وقال 'إذا عدت'، ثم تساءل: لا أعرف ما إذا كنت سأوافق على العملية الجراحية أم لا، ولكن الشيء الوحيد الذي أعرفه أنني لن أعود 'مشلولاً'، فإما في تابوت أو سيرا على قدمي.

افترقنا في اليوم التالي، عاد الى رام الله عن طريق عمّان، وعدت إلى لندن، ليهاتفني بعد ثلاثة أيام بأنه وجد الفيزا في انتظاره، وأنه سينطلق مع أواخر شهر تموز (يوليو) إلى هيوستن وبصحبته صديقه الصدوق أكرم هنية رئيس تحرير صحيفة 'الأيام' الفلسطينية، وسألني عن أصداء قصائده التي خص بها 'القدس العربي'، فشرحت له كمّ الردود الهائلة عليها في موقعنا الالكتروني، وشعرت كم كان مرتاحاً وسعيداً.

محمود درويش كان دائماً يعيش حالة قلق كلما كتب قصيدة جديدة، وكأنها القصيدة الأولى التي يكتبها في حياته، يسأل عما اذا كانت جيدة، وتصلح للنشر، فننهره بمودة، ونستغرب أسئلته هذه، ولكنه يقسم، وهو صادق، انه لا يعرف ما اذا كانت جيدة أم لا، ويريد رأينا قبل النشر وبعده، ثم بعد ذلك تدخل الطمأنينة إلى قلبه المتعب.

لم نعرف أن الحكومة الأمريكية اسدت إلينا

نظر إليّ وقال 'إذا عدت'، ثم تساءل: لا أعرف ما إذا كنت سأوافق على العملية الجراحية أم لا، ولكن الشيء الوحيد الذي أعرفه أنني لن أعود 'مشلولاً'، فإما في تابوت أو سيرا على قدمي.

معروفاً كبيراً عندما تلكأت في منحه الفيزا، فقد ابقته بيننا أربعة شهور، انجز خلالها اثنتين من أعظم قصائده، وشارك في عدة أمسيات احداها في رام الله، والثانية اقيمت في ملعب كرة قدم في جنوب فرنسا، ومحاضرة في باريس وسط نخبة من كبار الأدباءِ الفرنسيين، فقد يأتي الخير من باطن الشر الأمريكي.

لم يحدث أن اسيءِ فهم شخص في الثقافة العربية مثل محمود درويش، حيث ظلت تهمة الغرور تلاحقه من قبل الكثيرين، ولكنه لم يكن مغروراً ولا متكبراً، وانما شخص 'خجول' لا يفضل الاختلاط كثيرا بمن لا يعرف، ويتجنب الثناءِ والاطراءِ، وهو الذي يملك أرصدة ضخمة منهما على امتداد حياته الادبية. فهو لا يستطيع، كما كان يقول لي دائماً، أن يكون صديقاً للملايين من معارفه ومحبيه، ويحتاج إلى الخصوصية التي يتقوقع في داخلها في لحظات حياته بعيداً عن الأضواءِ.

عندما كان يقيم في باريس، وبالذات بعد استقالته من عضوية اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية احتجاجاً، ورفضاً، لاتفاقية أوسلو، واجه ظروفاً مالية صعبة جداً، فقد قرر الرئيس الراحل ياسر عرفات وفي خطوة مؤسفة، وقف الغالبية العظمى من مخصصاته المالية، ومن بينها أجرة الشقة المتواضعة التي كان يعيش فيها (غرفتان وصالة)، وكان بيننا اتصال هاتفي يومي في الساعة الثانية عشرة بتوقيت لندن، وفي احدى المرات، ولظروف قاهرة تتعلق بمشاكل مادية واجهتنا في الصحيفة استدعت قدوم محصلي الديون لمصادرة اجهزتنا وطاولاتنا وما تبقى من اثاثنا الهرم، لم اهاتفه كالعادة لمدة يومين فاتصل بي في اليوم الثالث غاضباً ومزمجراً بسبب انقطاعي عن الاتصال.

فاجأني عندما قال انه يعيش على هذه المكالمة اليومية، فهو لم يعد يستقبل غير مكالمتين فقط، الأولى مكالمتي المعتادة، والثانية من شخص عابر سبيل، وتساءِل هل طلبتني في أي يوم من الأيام ولم تجدني، قلت لا.. قال معنى هذا أنني لا أخرج من البيت لأني لا أملك ما يجعلني أخرج إلى القهوة أو المطاعم فقطعاً سيلتف حولي المحبون، ولا استطيع دفع الفاتورة. شعرت بالصدمة، فهذا الشاعر الكبير لا يجد من يهاتفه، وربما أحس بهذا التساؤل في ذهني، وقال: الأمر بسيط جداً: لا نقود.. ولا نفوذ.. ولا يهود.. وشرح لا نقود لأن الرئيس عرفات أوقف مخصصاته، ولا نفوذ أي لم يعد عضواً في اللجنة التنفيذية وقريباً من الرئيس مما يمكنه من حل مشاكل المحتاجين أو توظيف بعضهم، وأخيراً لا يهود.. أي أنه ليس منخرطاً في المفاوضات التي كانت على أشدها، حتى يكون في قلب الحدث الاعلامي والسياسي.

محمود درويش واجه 'خيبات أمل' كثيرة في حياته، ولكن أبرزها في رأيي، خيبة أمله في الشعب الفلسطيني عندما لم يثر غاضباً ضد اتفاقات اوسلو، فقد توقع هذه الغضبة، واراد ان يكون مع الشعب، لا مع الموقعين عليها، ولكن هذا الشعب فاجأه عندما رقص في معظمه طرباً، وصدق 'أكاذيب' قيادته بأن السلام قادم والدولة الفلسطينية المستقلة على بعد أربع سنوات فقط.

خيبة الأمل هذه اجبرته على ان يخفف من معارضته، وأجبرته ان يعود الى رام الله لانه لم يعد يستطيع العيش في باريس، وحتى لا يتهم بانه، وهو أحد ا لمتشد د ين في الاصرار على حق العودة، رفض ممارسة هذا الحق عندما سنحت له الفرصة، مضافا الى ذلك ان معظم اصدقائه في تونس عادوا ولا يريد ان يتخلف عن الركب، وحرص ان يترك مسافة بينه وبين السلطة.

اما خيبة الأمل الثانية فتمثلت في رأيه بالأداءِ الفلسطيني، والفشل الكامل في اقامة المؤسسات والحكم النموذجي الذي كان يأمله، وفوق كل هذا انهيار المشروع الوطني الفلسطيني الذي كانت تبشر به السلطة وقادتها واتساع دائرة الفساد المالي بصورة مرعبة، وقال لي في احدى المرات ان امنيته ان يهاجر مرة اخرى الى باريس ويعيش في استديو صغير (غرفة واحدة) ويقضي بقية حياته هناك، ولكن ما يمنعه هو الخوف من الاتهام بانه يرفض الوطن، والتضحية من اجله.

واجه ظروفاً مالية صعبة جداً، فقد قرر الرئيس الراحل ياسر عرفات وفي خطوة مؤسفة، وقف الغالبية العظمى من مخصصاته المالية، ومن بينها أجرة الشقة المتواضعة التي كان يعيش فيها

محمود درويش استقال من كل مؤسسات منظمة التحرير، واعاد اصدار مجلة 'الكرمل'، ورفض كل ضغوط الرئيس الراحل عرفات لتوزيره في حكومة السلطة، وفضل ان تكون دائرته في رام الله صغيرة جدا، محصورة في مجموعة اصدقاءِ، بعضهم شعراءِ وكتاب، واكثرهم من الناس العاديين البعيدين عن الوسط الثقافي. لانه كان يبحث عن الجلسة المرحة للهروب من ضغوط مرضه، وامراض المثقفين المستعصية، من غيرة وحسد ونميمة مثلما كان يقول.

كان يكره القيود، ولهذا لم يتزوج ثالثة، كان يكره ان تشاركه امرأة حياته، وكان يفضل دائما ان يكون سريره مملكته، كنا نلتقي بصفة دورية في باريس، وكان يحب الحديث عن النساءِ ومغامراته، وفي احدى المرات سألته كيف تطلق 'فلانة' بعد ستة اشهر وبهذه السرعة، قال لي: وهل تعتقد ان ستة اشهر فترة قصيرة، لقد طوّلت اكثر من اللازم.

محمود درويش أحب العرب جميعا، ولم يكن غريبا ان تكون اقوى قصائده في بواكيره الاولى 'سجل انا عربي'، وكان يشعر بمودة خاصة تجاه ابناءِ المغرب العربي الذين بادلوه الحب بحب اسطوري، ولذلك لم يتردد في قبول دعواتهم لإلقاءِ اشعاره في تونس والجزائر والمغرب في فترات متقاربة.

ربما تكون المملكة العربية السعودية من الدول القليلة التي لم يزرها مطلقا، وهناك قصة غريبة وراءِ ذلك، فقد جاءِ احدهم يفاتحه قبل عشرين عاما بدعوة لحضور مهرجان الجنادرية الثقافي السنوي في وسط نجد، وعندما سئل عن الجهة المنظمة قالوا له انها 'الحرس الوطني'، فقال وما علاقة العسكر بالثقافة، ألا توجد رابطة او نقابة او هيئة تتولى هذه المهمة غير الحرس الوطني؟ وكانت هذه الكلمات نهاية العرض.

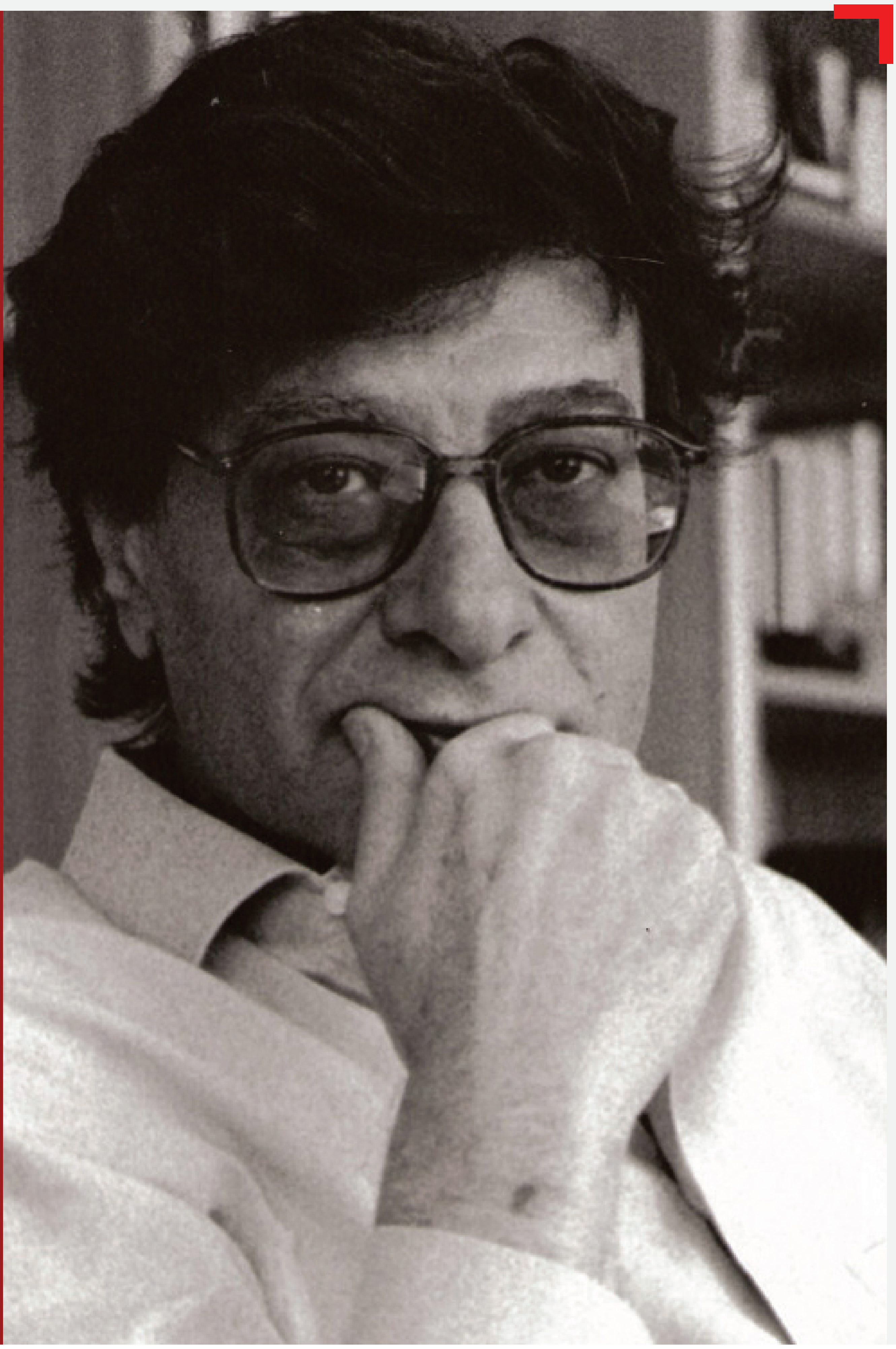

كان مولعا بالتدخين، وبعد عمليته الجراحية الاولى التي تكللت بالنجاح، قال له الطبيب ان اول شيءِ يجب ان يفعله ان يتوقف عن التدخين، فقال له دعنا 'نتفاوض'، فقال له الطبيب لا مفاوضات ولا تنازلات، فرد عليه: واذا توقفت عن التدخين ماذا سيحدث؟ فقال الطبيب: سيطول عمرك عدة سنوات، فقال له: سأستمر في التدخين، وليقصر عمري، لانه يعني تقصير شيخوختي. ولكنه اضطر للتوقف كليا بعد عمليته الثانية، وظل يجلس بالقرب من المدخنين ليستنشق ما هو محروم منه.

محمود درويش لم يعش الشيخوخة مطلقا وغادرنا وهو في قمة عطائه وعنفوانه وأناقته، وشخصيته المحببة، وتعليقاته الساخرة اللاذعة، شيءِ واحد لم يحققه، وهو الذي دخل قلوب وعقول الملايين، عدم حصوله على 'جائزة نوبل' التي ترشح لها عدة مرات في السنوات الاخيرة.

بعد محمود درويش لن يكون الشعر بالقوة نفسها او بالسحر نفسه، سيكون شعرا مختلفا، فبرحيله رحلت ظاهرة شعراءِ يملأون ملاعب كرة القدم بالمعجبين والمعجبات، ليس في الوطن العربي وانما في المنافي الاوروبية.

خسرته صديقا عزيزا، ورمزا من رموز هذه الأمة التي ربما لن تتكرر الا بعد قرون. محمود درويش اقول وداعا.

عن القدس العربي

لاعب النرد

محمود درويش

مِنْ إنا لإقول لكمْ
ما إقول لكمْ ؟
وإنا لم إكنْ حجرا صقلته المياهُ
فإصبح وجهاً
ولا قصباً ثقبته الرياحُ
فإصبح نايا ...

إنا لاعب النرْدِ ،
إربح حينا وإخسر حينا
إنا مثلكمْ
إو إقل قليلا ...
وُلدتُ إلى جانب البئرِ
والشجراتِ الثلاثِ الوحيدات كالراهباتْ
وُلدتِ بلا زفةٍ وبلا قابلةْ
وسمّيتِ باسمي مصادفةٍ
وانتميتِ إلى عائلةْ
مصادفةٍ ،
وورثتِ ملامحها والصفاتْ
وإمراضها :

إولاً - خللاً في شرايينها
وضغطِ دم مرتفعْ
ثانيا - خجلاً في مخاطبة الإمّ والإبِ
والجدة - الشجرةْ
ثالثا - إملاً في الشفاء من الانفلونزا
بفنجان بابونجٍ ساخنٍ
رابعاً - كسلاً في الحديث عن الظبي والقبّرة
خامساً - مللاً في ليالي الشتاءْ
سادساً - فشلاً فادحاً في الغناءْ ...

ليس لي إيُّ دورٍ بما كنتِ
كانت مصادفةٍ إن إكونْ
ذكراً ...
ومصادفةٍ إن إرى قمراً
شاحباً مثل ليمونة يتحرّش بالساهرات
ولم إجتهد
كي إجدْ
شامةٍ في إشدِ مواضع جسميَ سرّيةٍ !

كان يمكن إن لا إكونْ
كان يمكن إن لا يكون إبي
قد تزوّج إمي مصادفةٍ
إو إكونْ
مثل إختي التي صرخت ثم ماتت
ولم تنتبه
إلى إنها وُلدت ساعةٍ واحدةْ
ولم تعرف الوالدة ...
إو : كبَيْض حمامٍ تكسَّرَ
قبل انبلاج فراخ الحمام من الكلسِ /

كانت مصادفة إن إكون
إنا الحيّ في حادث الباصِ
حيث تإخّرتِ عن رحلتي المدرسيّة
لإني نسيتِ الوجود وإحواله
عندما كنت إقرإ في الليل قصةِ حبٍّ
تقمّصتِ دور المؤلف فيها
ودورَ الحبيب - الضحيَّة
فكنتِ شهيد الهوى في الروايةِ
والحيَّ في حادث السيرِ /

لا دور لي في المزاح مع البحرِ
لكنني ولدٍ طائش
من هواة التسكّع في جاذبيّة ماءٍ
ينادي : تعال إليّ !
ولا دور لي في النجاة من البحرِ
إنقذني نورسٌ إدميٌّ
رإى الموج يصطادني ويشل يديّ

كان يمكن إلا إكون مصاباً
بجنّ المعلّقة الجاهليّةِ
لو إن بوّابة الدار كانت شماليّةٍ
لا تطل على البحرِ
لو إن دوريّةِ الجيش لم تر نار القرى
تخبز الليلِ
لو إن خمسة عشر شهيداً
إعادوا بناء المتاريسِ
لو إن ذاك المكان الزراعيَّ لم ينكسرْ
رُبّما صرتِ زيتونةٍ
إو معلم جغرافيا
إو خبيراً بمملكة النمل
إو حارساً للصدى !

مِنْ إنا لإقول لكم
ما إقول لكم
عند باب الكنيسةْ
ولستِ سوى رمية النرد
ما بين مفترسٍ وفريسةْ
ربحت مزيداً من الصحو
لا لإكون سعيداً بليلتيَ المقمرةْ
بل لكي إشهد المجزرةْ

نجوتِ مصادفةٍ : كنتِ إصغرَ من هدف عسكريّ
وإكبرَ من نحلة تتنقل بين زهور السياجْ
وخفتِ كثيراً على إخوتي وإبي
وخفتِ على زمنٍ من زجاجْ
وخفتِ على قطتي وعلى إرنبي
وعلى قمر ساحر فوق مئذنة المسجد العاليةْ
وخفت على عنبِ الداليةْ
يتدلى كإثداء كلبتنا ...
ومشى الخوفِ بي ومشيت بهِ
حافياً ، ناسياً ذكرياتي الصغيرة عما إريدُ
من الغد - لا وقت للغد -

إمشي / إهرول / إركض / إصعدِ / إنزل / إصرخُ / إنبحُ
/ إعوي / إنادي / إولول / إسرعُ / إبطئ / إهوي / إخف
/ إجف / إسيرُ / إطيرُ / إرى / لا إرى / إتعثّرُ / إصفرُّ
/ إخضرُّ / إزرقُّ / إنشقُّ / إجهش / إعطش / إتعبُ /
إسغبُ / إسقطِ / إنهض / إركض / إنسى / إرى / لا إرى
/ إتذكّرُ / إسمعُ / إبصرُ / إهذي / إهلوِس / إهمسُ /
إصرخُ / لا إستطيع / إئنُّ / إجنّ / إضل / إقل / وإكثرُ
/ إسقط / إعلو / وإهبط / إدمى / ويغمى عليّ /

ومن حسن حظّيَ إن الذئاب اختفت من هناك
مصادفةٍ ، إو هروباً من الجيشِ /

لا دور لي في حياتي
سوى إنني ،
عندما علّمتني تراتيلها ،
قلتِ : هل من مزيد ؟
وإوقدتِ قنديلها
ثم حاولتِ تعديلها ...

كان يمكن إن لا إكون سنونوّةٍ
لو إرادت ليَ الريحُ ذلك ،
والريح حظُّ المسافرِ ...
شمإلتِ ، شرّقتِ ، غرّبتِ
إما الجنوب فكان قصياً عصيّاً عليّ
لإن الجنوب بلادي
فصرتِ مجاز سنونوّةٍ لإحلق فوق حطامي
ربيعاً خريفاً ..
إعمّدِ ريشي بغيم البحيرةِ
ثم إطيل سلامي
على الناصريّ الذي لا يموتِ
لإن به نفَسَ الله
والله حظُّ النبيّ ...

ومن حسن حظّيَ إنيَ جارُ الإلوهةِ ...
من سوء حظّيَ إن الصليب
هو السُلّمُ الإزليُّ إلى غدنا !

مِنْ إنا لإقول لكم
ما إقول لكم ،
مِنْ إنا ؟

كان يمكن إن لا يحالفني الوحيُ
والوحي حظُّ الوحيدين
"إنَّ القصيدة رَمْيَةِ نرْدٍ"
على رقعةٍ من ظلامْ
تشعُّ ، وقد لا تشعُّ
فيهوي الكلامْ
كريش على الرملِ /

لا دوْرَ لي في القصيدة
غيرُ امتثالي لإيقاعها :
حركاتِ الإحاسيس حسّاً يعدل حساً
وحدساً ينزّل معنى
وغيبوبة في صدى الكلمات
وصورة نفسي التي انتقلت
من "إنايَ" إلى غيرها
واعتمادي على نفسي
وحنيني إلى النبعِ /

لا دور لي في القصيدة إلاّ
إذا انقطع الوحيُ
والوحيُ حظُّ المهارة إذ تجتهدْ

كان يمكن إلاّ إحبّ الفتاة التي
سإلتني : كمَ الساعةُ الإنَ ؟
لو لم إكن في طريقي إلى السينما ...
كان يمكن إلاّ تكون خلاسيّةٍ مثلما
هي ، إو خاطراً غامقاً مبهما ...

هكذا تولد الكلماتِ . إدرّبُ قلبي
على الحب كي يسعَ الورد والشوكِ ...
صوفيَّةٍ مفرداتي . وحسيَّةٍ رغباتي
ولستِ إنا مِنْ إنا الإن إلاّ
إذا التقتِ الاثنتانِ :
إنا ، وإنا الإنثويَّةُ
يا حبّ ! ما إنت ؟ كم إنتِ إنتِ
ولا إنتِ . يا حبّ ! هبَّ علينا
عواصفِ رعديّةٍ كي نصير إلى ما تحبّ
لنا من حلول السماويّ في الجسديّ .
وذبْ في مصبّ يفيض من الجانبين .
فإنت - وإن كنت تظهر إو تتبطّنُ -
لا شكل لك
ونحن نحبك حين نحبُّ مصادفةٍ
إنت حظّ المساكين /

من سوء حظّيَ إني نجوت مراراً
من الموت حبّاً
ومن حسْن حظّي إنيَ ما زلت هشاً
لإدخل في التجربةْ !

يقول المحبُّ المجرّبُ في سرّهِ :
هو الحبُّ كذبتنا الصادقةْ
فتسمعه العاشقةْ
وتقول : هو الحبّ ، يإتي ويذهبُ
كالبرق والصاعقة

للحياة إقول : على مهلك ، انتظريني
إلى إن تجفُّ الثمالةِ في قدحي ...
في الحديقة وردٌ مشاع ، ولا يستطيع الهواءُ
الفكاكِ من الوردةِ /
انتظريني لئلاّ تفرَّ العنادلُ منّي
فإخطئ في اللحنِ /
في الساحة المنشدون يشدُّون إوتار الإتهمْ
لنشيد الوداع . على مهْلكِ اختصريني
لئلا يطول النشيد ، فينقطع النبرُ بين المطالع ،
وهْيَ ثنائيّةٍ والختامِ الإحاديّ :
تحيا الحياة !
على رسلك احتضنيني لئلاّ تبعثرني الريحُ /

حتى على الريح ، لا إستطيع الفكاك
من الإبجدية /

لولا وقوفي على جبَلٍ
لفرحتِ بصومعة النسر : لا ضوء إعلى !
ولكنَّ مجداً كهذا المتوّج بالذهب الإزرق اللانهائيّ
صعبُ الزيارة : يبقى الوحيدِ هناك وحيداً
ولا يستطيع النزول على قدميه
فلا النسر يمشي
ولا البشريُّ يطير
فيا لك من قمَّة تشبه الهاوية
إنت يا عزلة الجبل العالية !

ليس لي إيُّ دور بما كنْتِ
إو ساكونْ ...
هو الحظُّ . والحظ لا اسم لهُ
قد نسمّيه حدّادِ إقدارنا
إو نسمّيه ساعي بريد السماء
نسمّيه نجّارَ تخْتِ الوليد ونعشِ الفقيد
نسمّيه خادم إلهة في إساطيرَ
نحن الذين كتبنا النصوص لهم
واختبإنا وراء الإولمب ...
فصدّقهم باعةُ الخزف الجائعون
وكذّبنا سادةُ الذهب المتخمون
ومن سوء حظ المؤلف إن الخيال
هو الواقعيُّ على خشبات المسارحِ /

خلف الكواليس يختلف الإمرُ
ليس السؤال : متى ؟
بل : لماذا ؟ وكيف ؟ ومَنْ

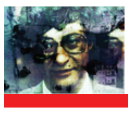

مِنْ إنا لإقول لكم
ما إقول لكم ؟

كان يمكن إن لا إكون
وإن تقع القافلةْ
في كمين ، وإن تنقص العائلةْ
ولداً ،
هو هذا الذي يكتب الإن هذي القصيدةِ
حرفاً فحرفاً ، ونزفاً ونزفاً
على هذه الكنبةْ
بدمٍ إسود اللون ، لا هو حبر الغراب
ولا صوتِه ،
بل هو الليل مُعْتصراً كُلّه
قطرةٍ قطرةٍ ، بيد الحظِ والموهبةْ

كان يمكن إن يربح الشعرُ إكثرَ لو
لم يكن هو ، لا غيره ، هُدْهُداً
فوق فُوّهة الهاويةْ
ربما قال : لو كنتُ غيري
لصرتُ إنا ، مرَّةٍ ثانيةْ

هكذا إتحايل : نرسيس ليس جميلاً
كما ظنّ . لكن صُنّاعِهُ
ورّطوهُ بمراته . فإطال تإمُّلِهُ
في الهواء المقِطّر بالماء ...
لو كان في وسعه إن يرى غيره
لإحبَّ فتاةٍ تحملق فيه ،
وتنسى الإيائل تركض بين الزنابق والإقحوان ...
ولو كان إذكى قليلاً
لحطّم مراتِهُ
ورإى كم هو الإخرون ...
ولو كان حُرّاً لما صار إسطورةٍ ...

والسرابُ كتابُ المسافر في البيد ...
لولاه ، لولا السراب ، لما واصل السيرَ
بحثاً عن الماء . هذا سحاب - يقول
ويحمل إبريق إماله بِيَدٍ وبإخرى
يشدُّ على خصره . ويدقُّ خطاه على الرمل ِ
كي يجمع الغيم في حُفْرةٍ . والسراب يناديه
يُغْويه ، يخدعه ، ثم يرفعه فوق : إقرإ
إذا ما استطعتِ القراءةِ . واكتبْ إذا
ما استطعت الكتابة . يقرإ : ماء ، وماء ، وماء .
ويكتب سطراً على الرمل : لولا السراب
لما كنت حيّاً إلى الإن /

من حسن حظِّ المسافر إن الإملْ
توإمُ الياإس ، إو شعرُهِ المرتجل

حين تبدو السماءُ رماديّةٍ
وإرى وردة نِتِإتْ فجإةٍ
من شقوق جدارْ
لا إقول : السماء رماديّةٍ
بل إطيل التفرُّس في وردةٍ
وإقول لها : يا له من نهارْ !

ولاثنين من إصدقائي إقول على مدخل الليل :
إن كان لا بُدّ من حُلم ، فليكُنْ
مثلنا ... وبسيطاً
كإنْ : نِتِعشّى معاً بعد يِوْمِيْنِ
نحن الثلاثة ،
مُحْتِفلين بصدق النبوءة في حُلْمنا
وبإنَّ الثلاثة لم ينقصوا واحداً
منذ يومين ،
فلنحتفل بسوناتا القمرْ
وتسامُح موت رانا معاً سعداء
فغضَّ النظرْ !

لا إقول : الحياة بعيداً هناك حقيقيَّةٍ
وخياليَّةُ الإمكنةْ
بل إقول : الحياة ، هنا ، ممكنةْ

ومصادفةٍ ، صارت الإرض إرضاً مُقدّسةٍ
لا لإنَّ بحيراتها ورباها وإشجارها
نسخةٌ عن فراديس علويَّةٍ
بل لإن نبيّاً تمشّى هناك
وصلّى على صخرة فبكتْ
وهوى التل من خشية الله
مُغْمىً عليهُ

ومصادفةٍ ، صار منحدر الحقل في بَلِدٍ
متحفاً للهباء ...
لإن إلوفاً من الجند ماتت هناك
من الجانبين ، دفاعاً عن القائِدَيْنِ اللذين
يقولان : هيّا . وينتظران الغنائمَ في
خيمتين حريرَتين من الجهتين ...
يموت الجنود مراراً ولا يعلمون
إلى الإن مِنْ كان منتصراً !

ومصادفةٍ ، عاش بعض الرواة وقالوا :
لو انتصر الإخرون على الإخرين
لكانت لتاريخنا البشريّ عناوينُ إخرى

"إحبك خضراءِ" . يا إرضُ خضراءِ . تُفّاحةٍ
تتموَّج في الضوء والماءُ . خضراء . ليلُكِ
إخضر . فجرك إخضر . فلتزرعيني برفق...
برفق ِ يدِ الإم ، في حفنة من هواء .
إنا بذرة من بذورك خضراء ... /

تلك القصيدة ليس لها شاعر واحدٍ
كان يمكن إلا تكون غنائيَّةٍ ...

من إنا لإقول لكم
ما إقول لكم ؟
كان يمكن إلّا إكون إنا مِنْ إنا
كان يمكن إلّا إكون هنا ...

كان يمكن إن تسقط الطائرةْ
بي صباحاً ،
ومن حسن حظّيَ إني نِؤوم الضحى
فتإخّرْتِ عن موعد الطائرةْ
كان يمكن إلّا إرى الشام والقاهرةْ
ولا متحف اللوفر ، والمدن الساحرةْ

كان يمكن ، لو كنت إبطإ في المشي ،
إن تقطع البندقيّةْ ظلّي
عن الإرزة الساهرةْ

كان يمكن ، لو كنتُ إسرع في المشي ،
إن إتشظّى
وإصبَح خاطرةٍ عابرةْ

كان يمكن ، لو كُنْتِ إسرف في الحلم ،
إن إفقد الذاكرة .

ومن حسن حظّيَ إني إنام وحيداً
فإصغي إلى جسدي
وإصدِّق موهبتي في اكتشاف الإلمْ
فإنادي الطبيب ، قُبيل الوفاة ، بعشر دقائق
عشر دقائق تكفي لإحيا مُصادفةٍ
وإخيّب ظنّ العدم

مِنْ إنا لإخيّب ظنَّ العدم ؟

الوردة الأخيرة- تصوير أحمد دغلس- خاص رمّان

متل ما بحكي معك..

يكتبها: علاء أبو دياب

انا كمان صاحبه لدرويش

من الأشياءِ اللي تميز فيها محمود درويش عن غيره إنو كان من القلال اللــي اخذو حقهم في حياتهم من ناحية شــهرة وإحتــرام لدرجة انو لما بلدية رام الله عملت حفل لتسمية مئة شارع في المدينة على أسم مية شــخصية هامة كان درويش الوحيد من الميّة اللي لساته عايش.. ووقتها لمــا القى درويش كلمته بالحفل هو اللي إنتبه ونبهنا على هاي «المش صدفة»!!

أما من ناحية اجتماعية فكيف كنت اســمع إنــو درويش كان بعاني من وِحــده أو بِفَضّلها وما بنســى فــي مقابلة مع عبد البــاري عطوان على التَلفزيــون لَمّا قــال إنو في مرحلــة معينة ودرويش فــي باريس كان الوحيد اللي بتصل عليه!! هلأ لهون ما في مشــكلة بالموضوع وما بعرف يمكن ما يكون في مشــكلة بالمرة إذا بنفرض إنو سمعي ضعيف أو عبد الباري عطوان فقد الذاكرة!!

ليش أنا بقول هالحكي !؟؟ لســبب بســيط جداً.. إنو مــع إنو الحي ابقى مــن الميــت ومع إنو مــا بنفع تكون صحــاب مع حدا ميــت .. بس طلع لدرويش نص مليون صاحب ليلــة ما توفى الله يرحمــه!! هــادول كلهم ويــن كانــو وهــو عايش؟ بس الله بعلم!! نبــدا باللــي كانــوا فــوق النعــش والقوا معلقــة رثــاءٍ

نُصَها مدح بالســلطة كانت رح تصحّي درويش من موته عشــان يسب دينهــم على قد ما بتنرفز (ويمكن هادا كان القصد منها) ، مع العلم انّهم في حياته كانوا من ســنين ما بيحكوا مع بعض بس محمود الميت اشي ومحمود الحي اشــي تاني!! يعني معقول تزعل من شــخص متوفي وما تحكــي معه!! يعني لو حاولت تكبّر عقلك او بالاحرى تزغّر عقلك وتحكي معــه.. يعني لتحلوا هالخلاف.. فكرك رح يقوم بعد ما الجزيره قالت إنّو ميــت ويرد عليك ؟! ماهو إذا قــام... كل اللي بالقاعة بما فيهم حضرتك رح تطلعوا عالجزيرة!!

وطبعــاً غيراصدقائــه المقربين جداً جــداً جداً اللي لحّقّــوا عالقنوات الفضائيــه كلها.. إنتو عارفين كم قناه فضائية بوطنهم العربي؟! يعني انتو فكركم من قليل عنّا هلقد مســؤولين!؟ والله مش عأشــي بس عشــان نلحّــق علــى كل الفضائيات!! ، ماهــو مش معقول نضل نشــكي إنهم ما بهتموا بالقضية وما ندبرلهم خلقت مسؤول يستضيفوه !!

وأكيد ما بننســى علاقته الموســيقية التاريخية مع التريو جبران وشَعراتهم (في ترابط وثيق بين الشِــعر والشَــعرات)!! يعني مع مرســيل وفهمنا كان في علاقة تاريخية.. بس كلهم اخَر اكم أمســية مع تريو جبران وصارت الناس ما تســمعه الا معهــم!! وهمّــه ما بطلعوا عــرض (بغياب درويش وحضور شَــعراتهم طبعاً) الا بجيبوا ســيرته بعــد مقطع البكى اللي بزبط دايما.. انو شــو... تقول من طول عمرهم اربع ... «حذفها التحرير» بلباس؟!!

ولسا هادا قليل جنب اللي بصير عنّا بفلسطين «التاريخية» (بحب هادا المصطلح بحســسني إنو اتفاقية ســايكس بيكو صارت بعد الإنفجار الكوني العظيم بساعة ونص) .. كل ما تشوف حدا بالجنازة للي كان عنده فرصة يشارك فيها إلا بقولّك :الله يرحمه ما كان يمرق أسبوع ما نلتقي فيه أو عالأقل تلفون. وشو!!! مع تأثّر شديد ومزمن بتحداك لو محمود درويش الواقف محلي كان صدّق!!

وبما إني ســاكن بفلســطين «التاريخيــه» فأنا كمان عندي قصــة مع درويش!! مــرة وأنا زغيــر يعني بالتســعينيات .. كنــت بمطعم حمص فــي رام الله وأجا درويــش وكمان تلاته وقعــدو عالطاولة الجنبي وأكلو حمــص!! والله العظيم يا عالم درويش كان ياكل حمص.. هاي حقيقة للتاريخ وجانب من حياته من حق الجمهــور الاطلاع عليه!! وعفكره اللي بطلعوا عالتلفزيون ما بيحكوا أشــياءٍ أهم من قصتي!!

القصة التانية كانت أطول شوي.. كنت أشتغل لفتره بمؤسسة اللي مقرها فوق مكتب درويش في رام الله يعني بعيده عنه شــي مية متر هوائي أو أكتر شوي !! وشــباك مكتبــي كان بطُل على ســاحة مكتبه .. فكتير مــرات لما كنت أدخن عالشباك أكون شايف درويش بدخّن برّا.. مزبوط هو كان يطلّع عالجهة التانية دايما ،لإنو جهت مكتبي كان كلو عمارات والجهة التانية جبال بس عالأقل كنت أشــوف ضهر محمود درويش بإستمرار ومرات يوميا!! يعني من المسافة اللي أنا عندها بكون طول درويش شــي ٥٠ ســنتمتر بس برضه مش قليله تشوف ضهر أحسن شاعر بالبلد كل يوم!! بالمحصلة كنت أشوف ضهره لدرويش كل يوم يعني أكتر من كتير من (صحابه)..ولما كان يغيب كنت أقلق عليه!! إنو صار في علاقة مش بســيطة بينّا!! وصّلت مرات أحســه بعاتبني!! إنو وينك يا صاحبي صارلك يومين معطّل؟! صرت أحســب حســاب لما أخد إجازه عشان سيجارة الصبح مع ابو الدراويش.. خلص هيك متعودين أنا وياه.. لو شــو ما يكون علينا لازم سيجارة الصبح مع بعض.. ولاّ شو هي الصحبه بس حكي؟! عشرة عمر هاي ما بتهون إلا على إبن الحرام..

وبناءً عليه ولإنو ما حدا أحسن من حدا .. أنا كمان صاحبه لدرويش.. ومن أعز صحابه كمان!!

Alaa.abudiab@gmail.com

بالزنبق امتلأ الهواء...

محمود درويش

«من ديوان "لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي»

بالزنبـق امتـلأ الهـواءُ، كأنّ موسـيقى ستصدحُ.
كلُّ شـيءٍ يصطفي معنى، ويرسـلُ فائض المعنى

إليَّ. أنا المعافى الآن، سيِّدُ فُرصتي
في الحب. لا أنسى ولا أتذكّرِ الماضي،
لأني الآن أولدُ، هكذا من كلّ شيءٍ..
أصنعُ الماضي إذا احتاجَ الهواءِ إلى سلالته
وأفسدَه الغبار. وُلدتُ دون صعوبة،
كبنـاتِ آوى، كالسـمندلِ، كالغـزال.. ولم أهنئ
والديَّ بصحتي وسلامتي. والآن، أقفزُ
صاحياً وأرى وأسمع. كلُّ هذا الزنبق
السحريّ لي: بالزنبق امتلأ الهواءِ كأنّ
موسيقى ستصدح. كَلُّ ما حوالي يهنئني:
خلاءُ السقف من شبحٍ ينازعني على نفسي.

وكرسـيّ يرحّـبُ بالتـي تختـار إيقاعـاً خصوصيّاً
لساقيها. ومرآةٌ أمام الباب تعرفني وتألفُ
وجه زائرِها. وقلبٌ جاهزٌ للاحتفال بكلِّ
شـيءٍ. كلُّ شـيءٍ يصطفي معنـى لحادثة الحياة،
ويكتفـي بهبـات هذا الحاضـرِ البلّـور. لم أعرفْ
ولم أسألْ: لماذا أحتفي بصداقةِ اليوميّ،
والشـيءِ المتـاح، وأقتفي إيقاعَ موسـيقى ستصدح
من زوايا الكون؟ لا أنسى ولا أتذكّرُ

الغد... ربما أرجأتُ تفكيري به، عن غير
قصـد، ربمـا خبّـأتُ خوفـي مـن ملاكِ الموتً،
عن قصد، لكي أحيا الهنيهةَ بين منْزلتين:
حادثـة الًحيـاة وحـادث المـوت المؤجّل ساعةً
أو ساعتين، وربما عامين... يفرحني تَذكُّرُ
ما نسيتُ: نسيتُ أن أنسى غناءِ الناي
للأفعى. بلا سبب يفيضُ النهرُ بي، وأفيض
حول عواطفي: ًبالزنبق امتلأ الهواءِ كأنّ
موسيقى ستصدح!

ضريح درويش في رام الله- تصوير أحمد دغلس- خاص رمّان